صبحي فحماوي

قصص

رجل غير قابل للتعقيد

طبع بدعم من
وزارة الثقافة
عمان - الأردن

مكتبة ديوان العرب يقدم لكم

رجل غير قابل للتعقيد

مجموعة قصصية

للكاتب الأردني صبحي فحماوي

إهداء

إلى أحمد الحسن،

والدي.

هذه القصص

د.إبراهيم خليل- الجامعة الأردنية

يواصل المهندس صبحي فحماوي ـ بهذه القصص ـ مشروعه الأدبي الذي ابتدأه بمجموعته الأولى ـ موسم الحصاد ـ الصادر عن دار الكرمل للنشر والتوزيع بعمان (1987)، والذي لم ينته بمجموعاته اللاحقة: صبايا في العشرينات، والرجل المومياء، ورواياته الأربع؛ عذبة، والحب في زمن العولمة، وحرمتان ومحرم،والإسكندرية 2050.

وصبحي فحماوي كاتب ذو نظرة خاصة بفن القصة، وفنون الأدب عموماً، فهو لا يؤمن بالعمل الأدبي ولا يرتاح له، أو يطمئن إليه، إلا إذا كان عملاً بسيطاً واضحاً يعبر تعبيراً صادقاً عن موضوع، أو فكرة، أو قضية اجتماعية، تستطيع أن تشد القارئ، وتستحوذ على اهتمامه وعنايته. فالاعتماد على الرموز والأساطير والتجارب التشكيلية العابرة، التي تحيط أجواء الحكاية القصصية بالغموض، لا تستهويه، بل نراه يرفضها رفضاً قاطعاً، لأن القصة في رأيه يجب أن تمنح نفسها للقارئ من النظرة الأولى، دون أن يضطره ذلك إلى إدامة النظر، ومعاودة القراءة.

هذا ما يحس به القارئ وهو يطالع فيها قصته الأولى " المهندسة والسائق ". ففي هذه القصة نجد الحوار الذي يحاكي الكاتب فيه لغة الحديث اليومي. سواء تلك التي يتفوه بها الشبان المتسكعون الذين يحاولون السخرية من المهندسة، التي لا تستطيع أن تبدل العجلة الفارغة من عجلات السيارة بالعجلة الاحتياط، أو تلك التي يتفوه بها السائق، أو ذلك الحوار الداخلي الذي يتفجر في نفس الصبية، وكأنها أسئلة تتوالد وتتزاحم في صدرها عن الخطوبة، والزواج الذي تأخر كثيراً.

وهكذا يأتي قدوم السائق، الذي يساعد المهندسة في تركيب العجلة، لينقذها من " الورطة " التي وجدت نفسها فيها، ولكي تضع حداً لعدم مبالاتها بالزواج.

إن المشهد(بذاته) ليس شيئاً خطيراً، أو معقداً، أو مركباً، لكن الكاتب تمكن بفضل الأقواس التي فتحها والمنولوج الداخلي الذي صوره من جعل المشهد الثابت الذي يكاد يستغرق ساعة، أو بعض ساعة، حكاية طويلة تسترجع فيها المهندسة حكايتها مع الدراسة، والعمل في الأبنية والمقاولات،

وخطوبة الأخت الصغرى، بل حتى الأخ الأصغر.. فكلّ شيء يمضي إلى غايته عدا هي، فهي باقية في مكانها، لا تفكر في غير العمل والمستقبل والأخوة. وهكذا يأتي قدوم السائق، ليضع حداً لذلك. ولا ننسى أن الكثير من الطموحات التي يحققها الإنسان، تبدأ شكلاً من أشكال الأحلام الصغيرة، التي تكبر وتكبر، إلى أن تكون واقعاً.

وللمرأة في قصص صبحي فحماوي حضور كبير، فكل قصة من قصص هذه المجموعة تدور حول الأثر الذي تتركه المرأة، سواء في الزواج، أو في الأسرة، أو في الحياة العامة . ففي قصة " رجل غير قابل للتعقيد " وهي من القصص الجيدة، يقف بنا القاص عند شخصية المعلم، الذي يصل الليل بالنهار، من أجل أن يكسب قوته وقوت عياله، وقليلاً من النقود، يشتري بها ثلاجة جديدة، بدلاً من الثلاجة المعطلة، التي ترفضها زوجته. ومع ذلك فإن الزوجة ذات الأطفال السبعة، لا تريد أن تشارك زوجها متاعبه، ولكنها قلقة لتأخره عن البيت. وعندما تتصل بها سيدة مجهولة لتخبرها بأن زوجها كان في غرفة نومها هي، سرعان ما تصدق هذه الأكذوبة، فتترك زوجها ينتظر خارج المنزل، رغم المطر المتساقط بغزارة، والبرد القارس، فهذه المرأة التي شاطرت زوجها رحلة العمر، بحلوها ومرها، سرعان ما تناست ذلك، بسبب وشاية كاذبة، لا تعرف مصدرها، وهكذا تنقلب حياة الرجل المسكين إلى جحيم، ليستنتج أنه ليس بحاجة إلى ثلاجة جديدة فقط، بل أصبح بحاجة إلى زوجة جديدة ، بعد أن جنت زوجته.

يستطيع القارئ أن يقف من هذه القصة وقوفه من أي حكاية طريفة ومسلية، ولا تخلو من الفكاهة، لكن صبحي فحماوي لم يكتف بهذا الجانب، وإنما تعمق في تصوير الأشخاص، وحاول أن يضع أيدينا على الجروح التي تثخن النفوس المسحوقة تحت عجلات القطار المشتعل بمتاعب العمر ومشكلات الأسرة .

وقصص صبحي فحماوي ـ كما قلت ـ لا تخلو من تركيز على دور المرأة، فهي إن كانت امرأة جيدة، كان دورها في بناء الحياة، والمحافظة عليها، إيجابياً وكبيراً، ولكن إذا كانت هذه المرأة غير صالحة، فعند ذلك الويل كل الويل للآخرين منها. ففي قصة "جبل الشيخ " يلفت نظرنا القاص باسلوبه الشيق إلى شخصية الفلاح المثالي الذي يتعلق بحصانه القوي الجميل، وأرضه التي إستطاع أن يمتلكها بعرقه وجهده خلال العمر كله. فتأتي المرأة التي تدب في صدرها الغيرة، فتجبر الزوج على أشياء كثيرة، لم يكن ليفعلها لولا المرأة. من ذلك مثلاً أن يكتب قطعاً من الأرض باسمها، أي يتنازل عن أرضه لشخص آخر، وهذا شيء كان دونه خرق القتاد. ثمّ تجبره على بيع الأرض، هذا مع أنها ليست بحاجة إلى المال، فهو يعطيها منه الكثير، فتشتري فضة وذهباً ومجوهرات كثيرة، لكنها تنظر إلى الجيران فتريد أن تفعل ما يفعلون. وعندما ترى سيارة طبيب القرية ـ وهو من أبناء القرية ـ تطلب من الشيخ أن يبيع أرضاً ليشتري لها سيارة، وتهون الأمور لو وقفت عند هذا الحد،

وها أنت ترى ـ عزيزي القارئ ـ من خلال تلخيصي لهذه القصة مدى ارتباطها بالأرض، والفلاح والحيوان والماضي الريفي، الذي لا يرتفع الكاتب فيه عن ذكر الألعاب الشعبية، التي يمارسها الأطفال قبل عقود من الزمن، ويتأنى في ذكره لبعض تصرفات الشيخ، ولهوه مع الصغار، وإعداد (الهويسة) من الفول الأخضر، والتلذذ بتلك الأكلة الشعبية في القصة، كل ذلك من أجل أن يبعث الكاتب في عمله الأدبي نكهته الشعبية الطريقة، التي تجعل القصة ممتعة وشائقة وواضحة تعالج قضية من قضايا الناس .

وفي قصة " الحفل البهيج " نجد المرأة الضحية التي يقتلها ابن عمها المعروف باسم أبي الشوارب ببرود، ودونما تأثر، لا لشيء، إلا لمجرد الشك بأن لها علاقة بأحد أبناء البلدة؛ (محمود المهاوش) وجلّ ما في الأمر، أنها قدمت له (شربة) ماء، وأجابته عندما سألها عن والدها وأحواله. وعلى هذا النحو تدفع (جليلة) ثمن هذا الموقف، فيما أبو الشوارب يزداد غطرسة وعظمة.

وفي قصة " اللهم لا تدخلنا في التجربة " يوجه الكاتب صبحي فحماوي الأنظار إلى " أبغض الحلال " ويبين موقفه من تضحيات أخرى تقدمها المرأة .

ولو أردت أن أحدثك ـ عزيزي القارئ ـ عن قصص هذه المجموعة حديثاً مفصلاً، لوجب أن أقف عند كل قصة، فألخص لك أحداثها، وأحللها تحليلاً أدبياً وافياً، لكن هذا التقديم لا يسمح بذلك. فكل قصص المجموعة من النوع الذي يشدك شداً، فلا يدعك تترك الكتاب، إلا بعد أن تقرأ القصة كاملة ؛ وتتمتع بحوار الشخوص، وملامح الوجوه التي يرسمها الكاتب، بريشة فنان، لا بقلم قاص، وتستطيع أيضاً أن تقف وقفة خاصة أمام لغته القصصية البسيطة الشفافة، التي تدفع بك عن سراديب الرموز، التي تحيل القصة ـ لدى بعض الكتاب ـ إلى أحجية، يعتمد فهمك لها على التخمين، والرجم بالظنون.

ولهذا لا أملك إلا أن أهنىء الأخ القاص صبحي فحماوي، على مجموعته القصصية هذه، مكتفياً بتقديمي لها بهذه الكلمات القليلة، متذرعاً بالحكمة المأثورة خير الكلام : المختصر المفيد .

وقصص صبحي فحماوي تقدم نفسها للقارئ من غير حاجة إلى تقديم .

المهندسة والسائق

ثلاثة شبان يتراكضون في الشارع، يتمازحون، يقتربون مني وأنا أركع إلى جوار سيارتي الخاصة، أفك العجل (المبنشر) . فستاني أبيض، وعلى عنقي ربطة نسائية حمراء. السيارة مشكلة في حياة المرأة، فعندما يطرأ عليها أي خلل فني مثل بنشر، أو بواجي، أو عادم.. أية قطعة تتعطل في سيارة المرأة تعتبر مصيبة! أنظر خلفي، وبطرف عيني أشاهد الشبان الثلاثة يقتربون مني. أنظر إلى يديّ المعطرتين، فأراهما سوداوين بفعل فك براغي العجل، وذريرات المعادن السوداء المحروقة تعلق بي في مناطق مختلفة.. أنظر إلى وجهي بمرآة السيارة الجانبية.. على أنفي سناج أسود، يبدو أنني مسحت أنفي بيدي، دون أن أشعر. تنورتي من أسفل، أصابتها لطخة سوداء.

وصل الشبان الثلاثة إلى جواري. سمعتهم يتضاحكون عليّ، حيث قال أحدهم :

" وأخيراً وقعتِ، ولا أحد سمّى عليك!" وقال آخر :

" الجميل يريد مساعدة؟" وتزاحمت تعليقاتهم الواحد تلو الآخر:

" عن إذنك، نحن نفك البنشر، ونركب العجل."

" نحن متخصصون في البناشر ."

" ما رأي الآنسة؟" وأنا لم أُجب أحداً منهم. كنت متضايقة من استخفافهم بي وهم يعلّقون متتابعين:

" يا عمي اتركوها تعمل، يبدو أن لها هواية بالبناشر!"

" العمل هو أساس حرية المرأة ."

" والله إنها زهرة، من عائلة الزواهرة !"

" يبدو أنها من عائلة البنشرجي!"

" المرأة تفك العجل بيمينها، وتفك الرجل بيسارها!"وقال آخر:

"يا حمار، المرأة تهز السرير بيمينها، وتهز العالم بيسارها!" وسمعت أحدهم يعلق ببذاءة قائلاً :

" الآن انتهت عملية الهزّ لأسرّة الصغار. الهزّ الآن للكبار فقط ." وقال آخر:

" أنت قليل أدب، هذا بدل أن تساعد الآنسة، تعاكسها!"

" أنا! بالعكس. عن إذنك يا آنسة ."

" يا رجل استحي على دمك، الآنسة منهمكة بالعمل، لا داعي لتعطيلها. ألا يكفيها تعطُّل عجل سيارتها؟ تريدها هي أيضاً أن تتعطل؟"

" عن إذنك يا آنسة، نحن نمزح معك بهدف إزالة النكد والهم والغم، لكن نحن مستعدون للمساعدة."

نظرت إلى ثلاثتهم من أسفل إلى أعلى، وكنت ما أزال راكعة أحاول فك العجل. ثلاثة شبان وسيمون، يبدو أنهم طلاب عائدون إلى بيوتهم، أو ذاهبون إلى مكان ما. كانوا يمزحون، وأنا متعودة على مثل هذه المعاكسات. لم أجبهم، ولم أتضايق منهم. اعتبرت الأمر عادياً جداً، حاولت الاعتماد على النفس، فأنا مهندسة، وتعلمت أن أتساوى بالرجل، وأن أسير معه في شوارع الجامعة، وأتناقش معه في العلوم والفنون والآداب والأحزاب والسياسة، وأن أشترك مع زملائي الشباب في تنوير الجماهير وتثويرها ضد الهجمة الإسرامريكية الامبريالية ضد الوطن العربي كله، وأن نجمع المساعدات لعائلات الضحايا من الفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين والسودانيين والصوماليين، بل وكل الضحايا العرب، وذلك لأنني أومن مع زملائي بأن العرب، كل العرب، هم ضحايا النهب الإمبريالي الفاحش، وإن تعددت الأشكال والصور لهذا السطو الرأسمالي على أمّة العرب المستضعفة، وكنا نعد المهرجانات والأسبوع الخيري لكل مناسبة من مناسبات الانتفاضة، بهدف جمع التبرعات العينية من الميسورين، وبيعها في المعارض المقامة لهذا الغرض، وجمع النقود، لدعم المقاومة ضد المحتلين . كل هذا العمل كان يقوم به الرجل في الماضي، وتدعمه المرأة من داخل الأسرة، وأما اليوم فالمرأة تشارك الرجل علناً في المقاومة، وتستشهد كما يستشهد، وتشاركه في العمل المهني اليومي. وها أنا أمارس مهنة الرجل، فأقود سيارة الرجل، وأفك عجل السيارة، وأداوم في مكتبي ؛ فأرسم الخرائط الهندسية، تماماً كما يفعل الرجل، وأذهب إلى مواقع العمل، وأمشي فوق أخشاب الطوبار، وأحيد عن مسامير الأخشاب، كي لا تخترق حذائي المطاطي الرياضي، وخوفاً من أن تخترق لحم رجلي، وأطلع أدراج العمارات المبنية على العظم، وأدخل في السراديب المعتمة، وأقدم كل ما يقدمه الرجل لمهنته من إخلاص وتفاني في العمل. ولكنني بصراحة، أخاف وأنا أسير داخل الممرات في سراديب المعمار. أخاف من الفئران والجرذان، وأخاف أن يستفرد بي رجل غير منضبط، وأخاف من العتمة، ومن مواجهة المتاعب، ومشاكل العمل، وأخاف من المستقبل. وهكذا أعيش حياتي، أحمل السلّم بالعرض. وعندما تحمل المرأة السلم بالعرض، في وسط شارع الحياة،

ابتعد الشبان الثلاثة، مستمرين في سيرهم ولهوهم، شبان فرحون، أسعدهم الله..ولكنهم استمروا في التعليق، أتعسهم الله!

" يبدو أن الآنسة زعلانة !"

" يا عمي لا حلاوة من غير نار. من تقود السيارة وتفرح بها، عليها أن تفك البنشر بنفسها."

" وتُغيِّر الزيت كمان !"

" أنت وقح !"

" لست أوقح منك. أنت علمتني الوقاحة !"

" لو كنت مكان الآنسة، لكانت معي ملابس إضافية زرقاء، البسها فوق ثوبي الأبيض لدى تصليح السيارة!"

" ثوبك أبيض! إذن أنت امرأة! ما رأيك أن ..!"

" أنت المرأة، فاهم! ما رأيك أن ..!"

" ملابس الميكانيكي ضرورية لمثل هذه المناسبات، أنصحك يا آنسة بشرائها."

" هل رأيت في حياتك امرأة عربية تعمل ميكانيكي؟"

" يا أخي عيب عليك. لو كانت الآنسة أختك، أو أمك، هل تسمح بأن تسمعها هكذا تعليقات ؟"

" وهل أسمح لأختي، أو لأمي، أن تقود سيارة ؟!"

" أنت رجل رجعي متخلف! والله أنا أختي تقود سيارة ."

" من يفك لها البنشر ؟"

" لا أدري ."

" إذن اخرس!"

ابتعدوا عني، وأنا محتارة في أمري، لا أستطيع أن أخرج عجل السيارة الإضافي من صندوق السيارة الخلفي، ازداد شعوري بالضيق، وازدادت مساحات السواد على يدي، وعلى فستان السهرة الأبيض، فأنا مستعجلة لإنجاز الأعمال المطلوبة لحفل خطوبة أختي الصغرى نادرة. نسيت مشكلتي مع هذا

الحادث. نسيت أن قطار الزواج أخذ يفوتني، فهذه قضية تزداد ظلالها على حياتي يوماً بعد يوم .

فبعد زواج أختي الوسطى سحر، وولادتها لطفلين، ها هي أختي الصغرى تخطب وتتزوج، وكذلك أخي زكي الأصغر مني تزوج، وأنجبت زوجه طفلاً جميلاً، مثل اللعبة، وأنا ما أزال على الرصيف أفك البنشر، بانتظار العريس، الذي يأتي ولا يأتي ، والذي سيأخذني على سرج حصانه الأبيض. وأنا في الحقيقة، أقبل بالحصان الأبيض دون سرج، متأكدة بأننا لن نقع، لأن عريسي سيكون خيالاً ماهراً، سيحضنني على ظهر حصانه، ولن يدعني أقع! أريد أن أتشبث به، لا بسرج حصانه، لا أريد سيارة خاصة. أريد حصاناً أبيض، ليست له عجلات، ولا سرج، ولا لجام، ولا يبنشر، ولا يفرغ خزان وقوده!

أنا سعيدة لزواج أختي نادرة، ولكنني تعيسة لعدم رواج بضاعتي! لست أدري، هل روحي بشعة إلى هذه الدرجة، أم إن شكل وجهي قد قطع رزق....، أم إن الدنيا حظوظ، أم إنني أنا السبب؟ فأنا أريد مواصفات خاصة لرفيق العمر، أريده أن يكون رجلاً ولا كل الرجال، شهماً، يستطيع أن يحميني، نعم يحميني، أريد رجلاً أسند ظهري على صدره، أريده رجلاً فحلاً، له شاربان عريضان كجناحي النسر، أو بلا شاربين، حنطي اللون، أسمر، أشقر، هذا لا يهم، المهم أن يكون رجلاً، والرجال قليل! يبدو أن موسم الرجال قد انتهى. فأنا لم يظهر في حياتي رجل واحد، أستطيع أن أشعر أنه يحميني !

هؤلاء الشبان الصغار المارّة يلعبون معي، ليست عندهم هموم مثلي! فالمستقبل أمامهم . وأما أنا فأخاف المستقبل المظلم، وأخاف من الزمن الذي كان خلفي، ثمّ أصبح أمامي، تماماً كالشبان الذين مروا، لقد كانوا خلفي ثمّ أصبحوا أمامي، وأنا لا زلت مكاني، أركع على الرصيف، وأداوي جراحي.

ثوبي لم يعد صالحاً لحضور الفرح، ولم يبق وقت لأذهب إلى صالون التجميل .

فجأة توقفت أمامي سيارة أجرة، وخرج منها سائقها ؛ رجل متوسط الطول، ذو شعر كثيف أشيب، وشاربين غليظين، وبنطال قطني أزرق، وذقن غير محلوق منذ أكثر من يومين. اتجه السائق نحوي وقال :

" ماذا؟ بنشر؟" فأجبته وأنا منكمشة بكل ضعفي:

" نعم ."

" عن إذنك يا أختي، أريد مساعدتك ."

وهنا تطاولت على ضعفي قائلة:

" لا، لا، أنا أستطيع أن أقوم بالعمل ."

" يا أختي أنت لا تستطيعين فك العجل، إنه صلب، وستنامين هنا الليلة. أنا اعرف هذا العجل، قد تكون فيه براغي صعبة الفك."

فتضاءل كبريائي وأنا أقول له :

" حاولت، وحتى الآن يوجد تقدم .."
كذبت عليه، فلقد كنت أعرف أنه لا يوجد تقدم، ولكنني..!
فقال بجدية مهنيّ :
" يا أختي ابتعدي قليلاً، فسأقوم بالعمل."
تراجعت مقاومتي وأنا أقول له : " لا، لا شكراً .!"
نظر اليَّ، وجحظني، ثم ارتفعت نبرة صوته قائلاً :
" قلت لك ابتعدي! ألا تفهمين! ابتعدي! هذا ليس شغلك، ثمَّ أنا لا أتقاضى أجراً منك! أرجوك يا أختي ابتعدي."
ابتعدت منكمشة إلى الوراء، واقترب هو مندفعاً إلى الأمام، وبسرعة فتح غطاء صندوق السيارة الخلفي، وأخرج منه العجل الإضافي. وفك براغي العجل المبنشر، وأخرجه من مربطه، ورفعه، ووضعه في صندوق السيارة، ثم ثبّت مكانه العجل الإضافي.
أنظر إليه وهو يقوم بالعمل. حذاؤه أسود، تقليدي قديم، مغبر، وغير ملمّع، وقميصه بني، قد لوحت لونه الشمس، أو تقادم الزمن، وخطوط بيضاء تتماوج مع خطوط سوداء، وتمتزج معها في تجمع شعر رأسه الكثيف، إنها خطوط الزمن الذي أخاف منه.
لم يتكلم كلمة واحدة، كانت عيناه تتحركان في محيط العجل، وأدوات العمل. لم تكن في يديه أي خواتم خطوبة أو زواج، كنت أسمع صوت تنفسه، وكأنني أسمع نبضات قلبه. وما هي سوى دقائق، حتى أعاد كل شيء إلى نصابه، وأغلق صندوق السيارة الخلفي، وسلمني مفاتيح سيارتي. كانت يده ساخنة .
" مع السلامة يا أختي، حاولي أن تنتبهي، كي لا تحصل معك مثل هذه الحوادث. مع السلامة."
أحدِّق في وجهه، بينما عيناه تمعن النظر في الأرض! تمنيت لو طال وقت معالجته للعجل .. وحال مغادرته، قلت له :
" شكراً جزيلاً ! مع السلامة ."
تحركت سيارة الأجرة، وانطلقت، واختفت، واختفى معها سائقها. كنت أتمنى لو قال شيئاً! لو ذكر لي اسمه، أو عنوانه.. كنت أتمنى لو كان أعزب وليس متزوجاً. سائق سائق لا يهم، إنه رجل، والرجال قليل.. استطاع أن يحميني، وأن يساعدني! لقد أسندت رأسي بين كفيه، ونمت قليلاً، ولو لدقائق معدودة! استطاع أن يحميني من مشكلة من مشاكل

الحياة! تمنيت لو لم يمّر الوقت بسرعة، ولكنه مر كلمح البصر! قدت سيارتي، وفي الطريق ، كنت أحلم أنني ما أزال أراقبه وهو يساعدني، يعمل عني، يحميني، تمنيت أن أراه مرة أخرى، أن أشكره مرة أخرى على الأقل. أن أعرفه ويعرفني، أن أنسجم معه، وينسجم معي، أن يكون متعلماً ومثقفاً، فيفهمني وأفهمه، ويحترم أفكاري، وأحترم أفكاره، فلا يمحو شخصيتي، أن يأخذني بسيارته إلى عملي، ثمّ يعود بي في نهاية الدوام، فيعيدني إلى منزلنا، أن أكون زوجة له، أن أخدمه برموش عينيّ، أن أسهر لينام، وأن أملأ بيته بالأطفال وبالثقة، ليطمئن ويتفرغ إلى عمله اليومي، كسائق أجرة، فهذا كله لا يهم، المهم أنني عندها سألقي برأسي المملوء بالهموم بين ذراعيه القويتين، ليحمل رأسي فأغفو في حضنه، فأنا لم أغف منذ مدة طويلة!

رجل غير قابل للتعقيد

الساعة الثامنة مساءً، وابتسام تحضر الطعام العشاء، بينما أولادها وبناتها يتصايحون :" يا أمي خالد يضربني!"

"لا تصدّقيه يا أمي، هو الذي عرقلني!"

والطفلة الصغيرة سمر تبكي، لأن أختها عائدة طردتها من الغرفة، وعائدة تصيح قائلة :

" يا أمي، أخرجي سمر من الغرفة، أريد أن أدرس، فأنا لم أفهم شيئاً من دروسي! سمر تلعب بكتبي، وتتحرك في الغرفة كالقردة، ومحمود أخذ مدفأة الغاز من غرفتي إلى غرفتهم، وأنا أشعر بالبرد!" والأم تجيب بقلب ذائب:

" تعالوا إلى العشاء. يا أولاد، يا بنات، تعالوا إلى العشاء!"

كانت ابتسام تحضر العشاء، ثم تدعوا أولادها وبناتها لتناول الطعام، بينما هي تفكر بزوجها المدرس أحمد :

"يا ترى أين أنت الآن يا أحمد ؟! أيُعقل أن كل هذا تدريس؟! أكيد إنه دائر هنا أو هناك، معقول أنه يقضي كل هذا الوقت في التدريس ؟! أكيد أنه قاعد عند إحدى الخالات، تشرح له مشاكلها مع زوجها، وتحكي له عن الحب، وهو يرخي أذنيه لكلام الحب مثل أذني التيس ! ويقول لنفسه: "يجعل ما حدا قرا!" قد يكون الآن متبطحاً عند هذه، أو عند تلك ! أنا لا أثق بالرجال، (اللّتي تثق بالرجال، كالتي تثق بأن الماء يثبت داخل الغربال)، وإذا بقي أحمد هكذا دائراً حتى أنصاف الليالي، من بيت إلى بيت، فسوف أفتقده! سيختفي من حياتي! لا أستغرب أن يعود في إحدى الليالي، وتحت إبطه زوجة جديدة ! لا أعرف هل تتزوجه القوادة، أم تتزوج أولاده وبناته الستة، وأنا السابعة، وهو الثامن! أسرة مكونة من ثمانية أفراد، من الصعب أن تستوعبها زوجة ثانية! غداً تلد، وتخلّف لنا ستة أكوام لحم آخرين، يأكلون طعام أولادي! ولكن هذا وحده لا يهمني، المهم أن لا تأخذ أحمد امرأة غيري، وأنا أضيع في الشارع، فأنا امرأة كسائر النساء، ليس لي أمان أو مستقبل أو ضمان، غير الألف دينار؛ مؤخر عقد الزواج، لا تشتري اليوم ثوب فرح لعروس، هذا إذا دفعهم أحمد نقداً في المحكمة. من المؤكد أن القاضي سوف يقسطهم ، بالتقسيط الممل، نظراً لكون أحمد معلم مدرسة غلبان، ودخله محدود، وعنده أسرة، تأكل الأخضر

والياس. لا ليس هذا هو السبب، السبب هو أن القاضي رجل، وأحمد رجل، والرجال يتضامنون مع الرجال ضد المرأة، وأنا طوال النهار والليل أمسح وأطبخ وأكنس وأغسل خراء أطفاله، وهذا يصيح، وذاك ينادي، وهذه تبكي.. وأنا لو كنت خادمة في هذا المنزل، لحصلت على أكلي وشربي وملابسي، وفي نهاية الشهر أحصل على راتب، ولكن العمل هنا لا يتوقف ليلاً ولا نهاراً، والمميقِت أنه دون راتب، والدوّامة مستمرة، وفي آخر الحياة، تأتيني عروس جميلةٌ مدهونة بالأصباغ الحمراء، ومجللة بالفستان الأبيض، ومخصصة للأستاذ أحمد، والناس يقولون :

(الخيِّر يتزوج اثنتين وثلاث) والدين يقول (مثنى وثلاث ورباع)! لا! أنا لن أسمح بهذه المهزلة، لن تمر هذه اللعبة السمجة، إلا على جثتي!

أكل الأطفال الستة في المطبخ، وخرجوا إلى غرفتي نومهم، الأولاد الثلاثة في غرفة، والبنات الثلاث في غرفة، وخصصت ابتسام غرفة النوم الثالثة، لها ولزوجها.

الساعة العاشرة ليلاً، والفأر يلعب في (عبّ) ابتسام، وهي ناعسة ومتعبة، وتريد أن تنام، ولكنها تفتح عينيها بالضرب، تضرب وجهها كي تصحو، ثم تروح تحدث نفسها :

"لا أريد أن أنام، حتى أطمئن على عودة العريس الغالي،(أبو عيالي) في أنصاف الليالي!"

وبينما هي غارقة في هذه الوساوس والأوهام، رن جرس الهاتف، فانتفضت، والتقطت سماعة الهاتف، وقالت:

" نعم؟"

"....."

" من؟ ماذا تقولين ؟!"

"....."

"ماذا! صحيح إنك امرأة قليلة حياء! صحيح (إذا لم تستح فاصنع ما شئت)! وأنت لا تستحين! قطعت الخط الشر...! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما هذا الهاتف؟! تقول بكل وقاحة :

(أحمد كان ينام معي! وهِيا هو قد خرج! خرج منذ دقيقة!) بينما أحمد يقول لي إنه يُدرِّس الأولاد! طيب! إذا وصلت يا أحمد الكلب، فعندي حسابك ! أنا أعرف كيف سأتعامل معك!"

الساعة الحادية عشر ليلاً، والمطر غزير في الخارج، والبرد شديد، والريح تعصف بالأشجار، وأكياس بلاستيكية تتطاير مع الريح، وبرميل صفيح يتدحرج بفعل العاصفة، بصوته المثير للأعصاب في الليل البهيم، والمعلم أحمد عائد إلى البيت، تدفعه الرياح الغربية الماطرة ذات اليمين، وذات اليسار، فيسير بخطى المتسابق مع الريح، والخائف من المطر المتساقط على رأسه وأكتافه، وكل جسمه، وكأنه سيارة تقف صاغرة في محطة غسيل، تحت رذاذ الماء الكثيف المضغوط، أحمد يركض

"أنا لا يهمني أحد، فأنا أواصل عملي، ليل نهار، وفق مبادئي التي أعمل من أجلها، فأنا معلم في مدرسة ثانوية منذ عشرين سنة، ودون إبداء الأسباب، فلقد بقيت معلماً. تجاوزني الكثير من المدرسين في الترقيات، حتى أن أحد طلابي أصبح مديراً لمدرستي، ورغم كل ذلك، لم أتعقّد، لأنني أومن أنني ولدت على شكل عقدة خشبية، متماسكة في جذع شجرة بلوط ضخمة، قطعوها من غابات جبال الكرمل، ثم رموها خارج المكان، ولهذا فأنا رجل غير قابل للتعقيد النفسي، أكثر مما أنا فيه. أنا رجل لا تؤثر فيه الأحداث! الأحداث تنزلق على صلعتي، فلا تدخل دماغي، ولا أتأثر بها، ذلك لأن الهدف الرئيس في حياتي، هو تعليم مزيد من الطلاب، وتنويرهم وتثقيفهم، حتى يستطيعوا أن يقاوموا أعاصير أحداث المنطقة! أنا لا أهتم، حتى لو عينوا أحد طلابي مديراً لمدرستي!"

وبالرغم من مكابرة الأستاذ أحمد، إلا أن دمعتين انحدرتا من عينيه فغسلتهما مياه الأمطار التي تجلد وجهه، وذلك عندما تذكر مديره، الأستاذ نواف ؛ الذي كان أحد طلابه في المرحلة الثانوية سابقاً، ثم عُيّن معلماً في نفس المدرسة، ثم مديراً، بترقيات سريعة وغير مبررة ! هذا المدير الصغير، وضع للأستاذ أحمد تقدير (جيد) في نهاية السنة، وهذا التقدير يحرمه من الترقية الوظيفية! فقال أحمد للمدير نواف:

"أنا أستحق تقدير (ممتاز) وليس (جيد)، ولكن على الأقل؛ سجل لي تقديراً وسطاً، أي(جيد جداً)" فقال له المدير الصغير:

" أنت تستحق تقدير (ممتاز) ولكن بيني وبينك، أنت تدرس دروس خاصة بعد الدوام الرسمي، وهذا مخالف للقانون، ولو كتبت تقريراً عن عملك الخاص لفصلوك من العمل. ولهذا فإن تقدير جيد، أفضل لك من الفصل".

نزلت من عينيه دمعتان لأنه لم يستطع أن يواجه المدير نواف ويقول له :

" إنك ياسيادة المدير الصغير، لم تحصل على شهادتك الثانوية العامة، التي أوصلتك إلى الجامعة، لو لم أدرسك أنا ؛ أستاذك المتواضع، دروساً خصوصية في بيتكم العامر!" لم يستطع أن يقول للمدير الصغير : "من أين نحصل على مصاريف الأولاد، لولا إيرادات الدروس الخاصة؟ ولكن أنا مخلص في

تعليمي، سواء في المدرسة، أو في بيوت التلاميذ. أهلني علموني كي أكون معلماً للأجيال، وها نحن نعلم الأجيال أن لا يسرقوا، وأن لا يقبلوا الرشوة، وحتى أنا المعلم، لو خرجت عن الأخلاق، وقررت أن أسرق من خلال وظيفتي، فماذا سأسرق ؟ طبشورة؟ لوحاً؟ أم إنني سأحمل مكتباً خشبياً مصمماً لجلوس ثلاثة طلاب؟ أم سأحمل مبنى المدرسة على ظهري وأهرب به؟ أنا أركض طوال النهار، حاملاً هموم الوطن، وهموم الأولاد والأسرة والزوجة التي لا ترحم، وصراعي مع الحياة طويل، يمتد من انطلاق خط الطبشورة على اللوح، ولا ينتهي عند الكونغرس الأمريكي، أركض طوال النهار، بالرغم من ارتفاع ضغطي، وارتفاع نسبة السكر في دمي! أركض وأنا أعرف أنني سائر إلى التهلكة، وأنا أفكر بإسعاف الآخرين، أعرف أنني لا أهمُّ أحداً، ولكنَّ أولادي وبناتي يهمونني، وامرأتي تخلق لي الهموم، ومن واجبي حمل أسرتي على ظهري، والصعود بهم يومياً هذه الدرجات الثماني والخمسين، المؤدية إلى بيتنا من الشارع المجاور.

رنَّ جرس باب بيته وهو ينفث أنفاسه الحارة بين يديه، في محاولة يائسة لتدفئتهما، ولم يطل الوقت حتى فتحت زوجته ابتسام طاقة الباب الزجاجي، وقالت له بصوت المهاجمة الشرسة، وكأنها برق لمع، وقد انفجر أمام وجهه:

" أين كنت حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ عد إلى المرأة العاهرة التي كنت معها، لسنا نريدك!"

وقبل أن يجيب الأستاذ أحمد على هذه المفاجأة المذهلة، أغلقت ابتسام طاقة الباب بوجه زوجها، الذي لم يفهم شيئاً! عاد فطرق الباب عدت مرات، ولكنَّ ابتسام لم تفتح .

كان أحمد متعباً وهو عائد من تعليم الدروس الخاصة للتلاميذ، جلس على الأرض، أمام الباب، لم يشعر بالبرد في تلك اللحظة، كان مصدوماً بالمقابلة، فقد عمل طول النهار من السابعة صباحاً، وحتى الحادية عشرة ليلاً، جلس وحسبها وهو يعد على أصابعه تحت المطر: "ست عشرة ساعة عمل، في هذا الجو القاسي! في الصباح أصارع الطلاب داخل الصف، وأصارع مدير مدرستي، والمعلمين المنافسين الغيورين مني بسبب حصولي على كثير من الدروس الخاصة للطلاب خارج الصف، وفي الظهيرة وبعد انتهاء الدوام الرسمي، أعود ومعي عدة أكياس من الخضار، وحاجات البيت. أتناول طعام الغداء واقفاً، وأنا أفكر في امتحانات نصف السنة لطلاب الثانوية العامة، وفي هذا اليوم كنت مرتبطاً بدروس خاصة لخمسة طلاب، كل في منزله. لم أستطع الاسترخاء ولو قليلاً بعد ابتلاع طعام الغداء، فكان عليّ أن أتحرك بسرعة للعودة إلى العمل. خمسة دروس، بخمسة دنانير للدرس الواحد، خمسة وعشرون ديناراً، سيضيع على الأقل منها خمسة دنانير بفعل النصب والاحتيال من بعض أولياء أمور الطلاب، بعضهم لا يدفع، يريد أن يعلم ابنه الآداب والعلوم والأخلاق، وفي النهاية يتصرف

"مهنتي تعب ومشاكل، أسير في الطرقات، من بيت إلى بيت، وأحفظ الحارات والأزقة غيباً، فهذا شهر الامتحانات، شهر الحصاد. في هذا الشهر، سأجمع نقوداً أستطيع بها أن أغير الثلاجة المهترئة، التي توقفت عن العمل في بيتنا، وأشتري ثلاجة جديدة، بالتقسيط المريح، لا بل بالتقسيط المزعج! وفي هذا الشهر، سأشتري ملابس شتوية مستعملة للبنات وللأولاد وأمهم.أمهم دائماً ترفض الملابس المستعملة، ملابس البالة، ودائماً تقول: (بالة! بالة! شو هالحالة ؟!)، وأنا سأشتري لنفسي معطفاً شتوياً مستعملاً من البالة، يقيني شر المطر.وفي القواعد ليست البالة مشتقة من بال، يبول، وليست من البلاء والبلوة، بل مشتقة من بالي، أي مهترىء، ..أو بالإنجليزية(بيل- أي شاحبة، أو من بايل، أي كومة، أو بقجة..ملابس تباع بالكوم!)

جلس أحمد يفكر في حياته.

" لقد كبرت في السن، وأصبحت أستصعب صعود الدرجات الثمانية والخمسين، التي تصل بين الشارع العام وبين منزلي .. كنت أعدها درجة درجة وأقول :

"إنَّ عد الأدراج، خير من التفكير بمشاكل زوجتي ابتسام!"

ثم أتفلسف فأتساءل:

"لماذا يسمون المولود (كريماً) فيكبر بخيلاً، ويسمون المولود (طائعاً) فيكبر عاصياً، ويسمونها (ابتسام) فتكبر تكشيرتها مع كبر عمرها، وضخامة أسنانها ؟"

أخذ البرد القارس بقوة، يتخلل داخل خلايا جسده، من أسفل إلى أعلى، فوقف مشدود القامة، وطرق الباب من جديد، وبقوة هذه المرة وقال لها :

" افتحي يا ابتسام، أنت مجنونة يا ابتسام ...! افتحـي حـرام عليك، سأموت من البرد!" فأجابته زوجته من الداخل:

" اذهب إلى العاهرة التي كنت عندها لتدفئك!"

" أنا لم أكن عند عاهرة، كنت في بيت أبو خليـل النـشواني، كنت أدرس ابنهم محمود، درس علـوم عـن الـذرة والانـشطارات النووية، وكنا نعد الإلكترونات والبروتونات بالحبة يا مجنونة! هـذه هـي كـل القـصة. أنـا لا أفهـم شـيئاً ممـا تقـولين! اتـصلي بهـم بالهاتف، وسيبلغونك أين كنت وماذا عملت!"

فتحت ابتسام الباب، وهي امرأة في الأربعينات من عمرهـا، سـمينة شـعرها أشـعث، تتحـدث بأسـنانها ولـيس بـشفتيها. وقالت بصوت أضعف من ذي قبل :

" إذن من هي التي تحدثت معي بالهاتف، وقالت لي:

- إن زوجك الأستاذ أحمد كـان فـي غرفـة نـومي، والآن خـرج من حضني! أرسلته إليك يا حبيبتي لتهنئي بـه! نحـن علينـا أن نغسل ملابسك الوسخة، ونسمع ضراطك طـوال الليـل، ونطـبخ لك السم الهاري ان شاء الله، وأمـا الحـضن الـدافئ، فهـو لتلـك العاهرة! يا ابو عيالي يا غالي! فأجابها مدهوشاً :

" أكيد أنـك جننـت يـا امـرأة! أنـا لا أفهـم شـيئاً ممـا تقـولين! دعيني أدخل، وبعدها نتفاهم داخل البيت، لقد مـت مـن البـرد! أنت تمثال من الثلج بلا قلـب." فتمايلـت علـى البـاب وأسـنانها تقول:

" وأنـت تمثـال للحـب والغـرام يـا أسـتاذ أحمـد! وهـل يوجـد تدريس حتى هذه الساعة، يـا أبـو التـدريس ؟" فأجابهـا بمـرارة مطفأة:

" أنت تعرفين أن التحضير لامتحانات نصف الـسنة للتـوجيهي على أشده! وهذا الشهر هو شهر العمل. ألم تقولي لي :

- الثلاجة خربت واهترأت، ولم تعد تعمل، وإنهـا بحاجـة للتغييـر. كنـت طـوال النهـار أفكـر فـي تغييـر الثلاجـة، وأن هـذا الـشهر سيمنحني القدرة على.. ولكن يبدو أن التغيير، يجـب أن يكـون للزوجة، وليس للثلاجة فحسب، لأن الزوجة أصبحت تالفة أيضاً، ولا تصلح لـهذا البيت! قال عمل المـرأة فـي بيتهـا! والمـرأة تهـز السرير بيمينها وتهز الزفـت بيـسارها! ولكـن ابتـسام تنهـشني بأسنانها وأظافرها!"

تناسى وجودها في فم الباب، وراح يكلم نفسه قائلاً :

" كنـت أيـام زمـان أرى أظـافر الـسيدات المدهونـة بـالأحمر جميلـة، كالأزهـار مـن بعيـد، وعنـدما غرقـت فـي بحـر زوجتـي ابتسام، أصبحت أشـاهد أظـافر الـسيدات الحمـراء، تقطـر دمـاً! ولكن هذا لا يهم."

يعود فيوجه الحديث إليها : " كنت عائداً أحسب إيراداتي وأنا سـعيد، لأننـي حققـت لـك الثلاجـة التـي تطلبـين." فتتراخـى ابتسام، وهي تجيبه بأنوثتها المشيطنة:

" اضحك علي، اضحك! أنت تعرف أنني سهلة التصديق لحيل الرجال!"

ابتعدت من طريقه عند مدخل الباب، فدخل وهو يحدث نفسه، ولكن بصوت عال هذه المرّة:

"أنا أعرف أنك قدري، وأنني مبتلى من الله عز وجل فيك، ابتعدي عني، أريد أن أغير ملابسي المنقوعة بماء المطر! أين هي مدفأة الكاز؟"

الجوز الفارغ !

مؤخراً فهمت كل الحكاية، وفهمت سبب التخريب، الذي تكرر حدوثه في حديقة السيد بريكي، ففي كل مرة يطلب مني زراعة مجموعة جديدة من النباتات في حديقة منزله، بهدف تطويرها، أقوم بتنفيذ المطلوب، وبعد عدة أيام، تكون النباتات والأزهار قد زرعت، والتطوير قد حصل، وثمن الأعمال والمزروعات قد سدد، من قبل رجل الأعمال الكبير السيد نزار بريكي.

ولكن تخريب النباتات الذي كان يفاجئني،وتكرُّر حدوثه في الحديقة، كان مدهشاً وغير مبرر، بل ومستهجناً، إذا قلت لك بصراحة وعلناً : إن السيدة بريكي كانت هي السبب وراء كل ما يحدث. كنت بالغريزة أراقب نباتاتي التي أزرعها في كل مكان، فأكرر زياراتي إلى الحدائق التي أزورها بين حين وآخر. والغريب في تصرف السيدة بريكي، أنها كانت وبعد أن أغادر الحديقة، وأقبض ثمن المزروعات من زوجها، تقوم باقتلاع النباتات الجديدة الجميلة، وقذفها خارج السور لتموت.

طبعاً ستقول لي : " هذا إجراء غير منطقي، وغير مبرر!" وأنا أشاركك الرأي، فلقد فكرت في الأمر كثيراً، ولم أفهم السبب. وتكرر الأمر في مناسبة أخرى، فبعد أن زرعت نباتات وأزهاراً نادرة وملونة، بناءً على طلب السيد نزار، ظهر رونق جديد للحديقة ، وأشرقت فيها لمسات فنية جميلة. ولكن أثناء زيارتي اللاحقة، شعرت بغيظ وصدمة ، لمشاهدتي فراغات أماكن معظم النباتات التي زرعتها حديثاً. لقد اختفت من الحديقة! غضبت واضطررت أن أسأل السيدة بريكي التي كانت تقبع في البيت، ولم أتعود أن أراجعها، أو أتحدث معها قبل هذا الحادث. قلت لها وكأنني ضابط تحقيق هذه المرّة: " من الذي خلع النباتات التي زرعتها؟" فقالت مبتسمة دون اكتراث!:" أنا التي خلعتها."

" لماذا؟ هل كانت غير لائقة ؟"

" بل على العكس، كانت ملونة وجميلة."

" إذن كيف حدث أن خلعتها ؟" فأجابت متبرمة بأسئلتي:

" مزاج ! هكذا حدثني عقلي!" قلت:" لا أفهم! كيف حدثك عقلك أن تخلعي نباتات، أنت تقولين إنها جميلة !" فاستدارت في وقفتها قائلة :

" أنا حرة ! ألم تقبض ثمنها؟"

" الثمن ليس هو القضية، بل معنوياتي هي التي في الميزان!"

كانت السيدة بريكي في الخمسين من عمرها، طويلة القامة بدينة الجسم، قليلة الحركة، شعرها قصير ممشط دون اكتراث، ونادراً ما تظهر في الحديقة، وإذا ظهرت وتحدثت، فهي

" ولكن رغبة السيد نزار..!" فاستشرت قائلة:" رغبة السيد نزار! أنت قلتها بنفسك. السيد نزار! السيد نزار! أنا سأنفجر من نزارك هذا! أنت سألت بصراحة، وأنا أجيبك بصراحة، فأنا خلعت النباتات والأزهار لسبب واحد فقط."

" ما هو هذا السبب ؟ لقد أثرت فضولي !"

" كي يسألني زوجي لماذا خلعتها؟ لكنه لسوء حظي، يتجاهلني تجاهلاً تاماً، ويكتفى بأن يسدد ثمنها، ولم يسألني ولو مرّة واحدة:

- أين ذهبت الأزهار ومن أتلفها؟ أنا أتلفت الأزهار يا خليل، كي أسمع ولو صوتاً واحداً ؛ سواء كان موافقاً، أو معترضاً، ساخطاً، أو معجباً، أي شخص، حتى لو كان غير نزار بريكي! كي أسمع مناقشة! أسمع حديثاً في هذا البيت، وها أنت تسألني من خلع الأزهار؟ على أقل تقدير نجحت الخطة ! ها أنا على الأقل أجد أحداً يسألني، يتحدث معي، ويبادلني الحديث، يستفسر، يناقش! تصور لو كنت خزانة في غرفة، أو درجاً في مكتب، لوجدت من يفتحني، أو يحركني، أو يمسح الغبار عن أضلعي، لكنني مبعدة مستبعدة في داخل برجي العاجي. ليس لي وجود داخل كيان نزار بريكي! الحديث في بيتنا لا يزيد على كلمة صباح الخير، أو مساء الخير في أحسن الأحوال . يأتي نزارك هذا ؛ أشهر تاجر في البلد، فتحضر له الخادم الغداء، ولا يكلف نفسه أن يناديني من الطابق الثاني، حيث أكون في غرفة النوم، أو على شرفة المنزل، أراقب دخوله من بعيد. يأكل وينام في غرفته الخاصة. لقد استقل عني في غرفة منفردة، بحجة إنه يريد أن يستمتع بالهدوء وينعم بالموسيقى ويخلد إلى النوم. إنه متعب. يأتي من السوق وقد أنهكه العمل، متعباً، غاضباً، مشدود الأعصاب، عصبي المزاج!"

كنت وأنا أسمعها، أتخيل السيد نزار الذي كان كثيراً ما يحدثني عن نفسه فيقول : "أصبحت أعمالي معقدة يا خليل. والسعادة لا وجود لها في قاموسي العملي، فإذا سعدت اليوم بزيادة أرباحي من شحنة بضاعتي التي وصلت بالطائرة، فإنني في نفس اللحظة، أشعر بالتعاسة، لخسارتي من شحنة

الباخرة المحجوزة في أعالي البحار، بسبب أوامر الحصار على بؤرة التوتر في الصراعات النفطية! هم يتقاتلون، ونحن نتضرر! لا أفهم ما علاقتنا نحن بالحرب! هم يتحاربون، بينما بضاعتنا ونقودنا تحتجز! مأساة ! الحرب مأساة ياخليل ؛ ونحن أكبر المظلومين فيها!"

قلّمت وردة كانت قد جفت على غصنها، ثم قلت له :" وقد تكونون أكبر الرابحين في الحرب.ألا يقولون: أغنياء حرب ؟" فابتسم وقال ساخراً:

" هذا أنت تفهم في غنى الحرب يا فلاّح خليل! ولكن هذا لمن يربح، وأما من يخسر، فإنه يدمّر، وقد يفقد حياته بطلقة تنزلق صدفة !"

السيد نزار براكلي متوسط الطول، ممتلئ الجسم، في الخمسينات من عمره أيضاً، رقبته قصيرة غليظة، تحمل رأساً كبيراً، كث الشعر، لونه قمحي، وعيناه عسليتان، فيهما تحدٍّ وقوة، كثير الحركة، مرتفع الصوت، قليلاً ما يتحدث، وإذا تحدث، فلكل كلمة معنى ومطلب ومدلول، لا ينطق كلمة واحدة، إلا إذا قصد منها توصيل معلومة. بخيل في مدفوعاته، ولكنه يسدد فواتيره بحذر شديد، وبعد تدقيق عميق.. قلت له :

" يا رجل أنت تملك بيتاً جميلاً وحديقة ساحرة غناء، فاستمتع بهما!"

فقال وهو يركب سيارته المرسيدس 500:

" بيت وحديقة! هه! تأكد يا خليل أنك أنت البستاني الذي تستمتع بهذه الحديقة، وأنت الذي ترى جمالية هذا البيت، أما أنا فلا أرى منهما شيئاً، ذلك لأنني عندما أدخل البيت، أكون كالثور المنهك الجائع، أدخل المطبخ، فألتهم الطعام الذي تعده الخادمة، وأرتمي على سرير غرفتي، لأرتاح في فترة استراحة المصارعة. فترة الغداء عندي هي فترة استراحة المحارب. أنا فقط أصل إلى البيت، لأرتاح من صراع السوق، وأنام مفكراً في نتائج الصراع السابق، وأنقبض في سريري مفكراً بالاستعداد للجولة القادمة! أنا رجل مرموق في السوق، وأريد أن أكون نجماً، وأن أكون قيادياً في عالم التجارة. أخاف الخسارة، كي لا يشمت بي منافسو مهنتي، وأطمع بالربح حتى أحقق طموحي، وأسيطر على الآخرين في السوق! أريد أن أحطمهم، قبل أن يحطموني. إنه صراع مرير ولذيذ! لا يدركه إلا من دخل حلبة هذا الصراع القاسي الممتع."

لا أعرف لماذا يقول لي كل هذا! قد لا يجد في السوق من يُسر له أحاسيسه وأفكاره هذه من منافسيه ، فيقولها لواحد بستاني على باب الله ، مثلي.. قعد على كرسي ، ودعاني لسحب كرسي حديقة آخر، والجلوس عليه ، ثم استمر في حديه قائلاً :

" قال لي عمي وأنا شاب يافع: (إن لذة الأرباح تفوق لذة النكاح.) وأنا أشعر الآن، أن متعة الربح في تجارتي، تفوق كل المتع واللذات التي يشعر بها الآخرون ! متعة النجاح والسيطرة

انتبهت السيدة بريكي، الواقفة أمامي، وهي تقول لي : "يبدو أنك لا تسمعني أنت أيضاً!" فقلت معتذراً :"عفواً لقد سرحت قليلاً." فتابعت قولها: " باختصار نزار لم يعد لي، أصبح ملكاً لأمواله وثرواته، فأنا أراه مرة يضحك دون مبرر، ودون أن يرى أحداً أمامه، ومرة أراه مكشراً عن أسنانه، يائساً حزيناً، يكاد ينفجر من الغيظ. ربح. خسارة. خسارة. ربح. ربح. خسارة. خسارة. ربح. هذه هي لعبة نزار اليومية! أنا لا أسمع منه سوى التأفف! مشاكل العمل. مشاكل الجمارك. دراسة العطاء الفلاني. دراسة المناقصة الفلانية. لم يسألني نزار يوماً عن صحتي، فهو فقط يقول :(إذا كنت تريدين نقوداً، خذي.) لا يسألني أين أذهب، ولا أين أسهر، ولا مع من أسهر، ولا مع من أنام، أو أقوم، أو أقعد، فهذه مشاكل كلها لا تخص العمل..فأقول له صائحة:(هذه ليست حياة!) فيجيبني بكل نزق: إذا لم تعجبك هذه الحياة، فالباب يمرر جملاً! اذهبي إلى أهلك! ماذا تريد الزوجة من الزوج؟ أن تأكل وتشرب وتلبس وتحصل على سيارة وبيت وزوج ؟ فأقول له :

- فعلاً ترغب المرأة بهذه الأشياء، ولكن هذا الزوج، إذا قدم لها هذه الأشياء ضمن فراغ رهيب، فهو (زوج فارغ) إنني أطعم ثمار الجوز الفارغ كل يوم، فتفتح نفسي، ويسيل لعابي، إنك جوز فارغ! وأنا لا أجد أحداً يحدثني في المنزل، كرهت الحديث مع الخادمة، أريد أن يحدثني زوجي، أنا اخترتك يا نزار لتكون زوجاً لي، ولكنك زوج مع وقف التنفيذ! كنت أعيش مع ابني وابنتي، أرسلهما إلى المدرسة، وأعود بهما من المدرسة، وأتابع دروسهما، وأناقش مشاكلهما، وأبحث قضاياهما، وأتقاتل معهما، وأحبهما، والعب معهما، وأقبلهما، وأحتضنهما. كانت الدار مملوءة بهما، لم أكن ألتفت كثيراً لمعاناتي من انشغال زوجي.

كبر الطفلان يا خليل، فإذا بهما شابان يانعان، أطول مني، فذهبا إلى الجامعات الغربية، وهكذا انقطعت في فراغ قاتل داخل بيتي الجميل، الغرفة خاوية من ساكنيها. هذه غرفة نوم مفروشة ومؤثثة بأفخر المفروشات، ولكنها فارغة! والغرفة المجاورة مثلها فارغة، والغرفة الثالثة فارغة، وغرفة نزار فارغة

أيضاً. أسير طوال النهار داخل ممرات البيت، في سراديب طويلة، أصرخ بملء صوتي، كي أسمع الصدى ، فلا يرتد كي أسمعه! ذلك لأن البيت مفروش بالسجاد ذي الفرو الذي يمتص الأصوات، ويفرض الهدوء . تصور يا خليل، حتى صدى صوتي يبخل عليّ بالرد! فتنهدت تنهيدة عميقة وقلت لها:

" لماذا لا تشغلي وقتك بالعمل، أو بزيارات صديقاتك مثلاً؟" فقالت ودموعها تسيل على خدها:" حاولت أن أعمل، والعمل بالتأكيد يكون بداعي الحصول على النقد والراتب، وأنا أملك النقد، وما دمت أملك النقود، فلا أجد حافزاً للعمل والعناء والتعب.. حاولت العمل فلم أتحمل نكد المدير وعناء العمل، ولم تتحمل أعصابي تحكم الزبائن في إرادتي . (الزبون دائماً على حق، حتى لو استشر في وجهي داخل المؤسسة!) لو كنت بحاجة إلى النقود، لتحملت عناء العمل، ولكن لماذا أعمل؟ وإذا لم يدفع لي نزار ، فستذهب نقوده سدىً، وسنكون حارسين، مجرد حارسين على نقودنا! سنموت وتبقى نقودنا للآخرين! لذلك أنا أفكر بالصرف وليس بالعمل..حاولت أن أزور بعض صديقاتي القديمات. وجدت صديقتي سارة مشغولة بالعمل، وغير متفرغة للزيارات. استقبلتني لفترة محدودة، ثمّ أشعرتني بطريقة غير مباشرة أن الوقت قد انتهى، وأنها مشغولة بالعمل. زرت صديقة أخرى، كان أطفالها السبعة يصرخون حولها، هذه يقلب فنجان قهوتي، وهذا يلعب (الطماية) خلف ظهري، وهذا يرمي لعبته للسقف، لم تكن صديقتي سهير متفرغة لي، تكلمني كلمة، وهي مشدوهة بين أطفالها. نظرة لي، ونظرة إلى أطفالها. تقوم فتعمل لهذا طعاماً، وتشرب ذاك الدواء، وهكذا لم أجد نفسي في هذا الجو. عدت إلى بيتي الذي من المفروض أن يكون سكوني وهدوئي، وسكنت وهدأت كثيراً، وصبرت أياماً وأشهراً وسنيناً على هذا الحال، وفي كل يوم أكتشف أنني أغرق في هذا الفراغ القاتل المدمر. اكتشفت أن بيتي الجميل لم يعد جميلاً، وحتى أزهارك التي تزرعها لي، لم تعد جميلة، والأكوام الترابية التي تضعها في الزاوية، وتزرع فوقها الأزهار، وتضع الصخور حولها، في حديقة تقول إنها صخرية، أراها قبوراً لأطفال صغار! أعيش وحدة حياتي قاتمةً، أفكر كثيراً بالموت، أكره الزهور، لأنها تزرع على المقابر، أنبش التكوينات الزهرية المضافة إلى جانب صخور الحدائق، لأنني أرى فيها أزهاراً توضع إلى جوار شواهد القبور، ولهذا أخلع أزهارك، ونباتاتك يا خليل. كرهت حياتي، ولكن أنا الآن ربما أكون سعيدة، لأنني وجدت شخصاً يشكو إلي مشكلته، فأبثه شكواي، وجدت شخصاً يملأ علي فراغي، تعال تفضل يا خليل، تعال نجلس.. تعال نشرب شيئاً."

أمسكتني المرأة من يدي وشدتني، ولكنني نظرت حولي، وتأثرت بالموقف، وتذكرت أنني تأخرت كثيراً عن زوجتي، حيث إنها لاتتناول الطعام، إلا برفقتي، فاستأذنت من السيدة بريكي، وعدت إلى البيت مسرعاً، حيث كان ابني عدنان، وابنتي قمر، وزوجتي سعاد، يلوحون لي بأيديهم مرحبين، وهم يقولون:

" تأخرت علينا. لقد برد الأكل وجعنا"

ونحن عادة لا نأكل إلا مجتمعين، فيأخذ كل منهم يشرح لي قصته ومشاكله، ونأكل ونحن نضحك، ونسمع النكات والمزاح، ونتقاتل ثم نتصالح، ونلعب قليلاً، ثم أذهب أنا للنوم، ويذهب كل منهما إلى دروسه، وتندس زوجتي إلى مخدعها المجاور لجسدي، فننام في سكون هادئ.

جبل الشيخ!

الشيخ عبد مسجى على الأرض، على الجهة المقابلة لمعلف الحمار، مغطى ببطانية سوداء، ويئن أنيناً خفيفاً، مريض؟ لا! لا! لا سمح الله !

المنزل في الطابق الأرضي، من بيوت الفلاحين الجميلة، نصفه الأمامي مكشوف للسماء، ونصفه الخلفي مسقوف، ليحمي إسطبل الحصان والحمار، ومعلفيهما، والدرج الذي يصعد إلى (العلّية) البيضاء، يقسم الحوش الأرضي إلى قسمين، جهة اليمين، وجهة اليسار، مخصصين أحدهما للحصان، والآخر للحمار، وإلى جوار كل جهة معلف، يوضع فيه تبن وشعير، وأعلاف للحيوانيين.

يبدو أن الشيخ عبد في حالة متوسطة ما بين الحياة والموت؟ لا! لا سمح الله! هكذا شعرت، لأنه لم ينتبه لقدومي، ولم يرد السلام، عندما وقفت مندهشاً أمامه، أحاول على أن أتعرف على ما يحدث في الرواق. كان يئن أنيناً مراً، ويتلوى بحذر، في إسطبل الحصان إلى جانب المعلف، إسطبل الحصان! لكن أين الحصان الأبيض المهيب، ذا السرج الجلدي الأحمر الجميل، ذا الركابين النحاسيين الصفراوين، اللذين كان الشيخ عبد يضع بسطاره الجلدي الطويل العنق، العسلي اللون، داخل الركاب الأيسر، ثم يقفز برجله اليمنى، معتلياً سرج الحصان، خيالاً مهولاً، يطارد على حصانه في الجبل ؟ كان الجبل معروفاً باسم، (جبل الشيخ عبد)، وكان ملكاً له، وعندما كنا نقول (جبل) لم أكن أعرف مساحته التي بعد أن عرفت المقاييس قدرتها بمئات الدونمات، تشكل مساحة واسعة من أراضي قرية الدير .

كان الشيخ عبد خيالاً، طويل القامة، حنطي الوجه، نحيل الجسم، وفارساً ورجلاً مهيباً في قريته، وبين فلاحي منطقته، ورغم ممتلكاته الواسعة، إلا أنه لم يكن جباراً أو متسلطاً، ولم يكن ذلك الإقطاعي المتجبر، الذي نقرأ عنه في الكتب، بل كان بسيطاً ودوداً معنا نحن الأطفال. كان يخاف علينا ويحذرنا ونحن نلعب في الجبل .

"انتبهوا كي لا تقعوا في البئر." أو يقول:

" انظروا أمامكم جيداً، كي لا تدوسوا على أفعى بين العشب، لأن الأفعى إذا داس أحدٌ عليها فأنها تعضه، وإذا عضته مات !"

وكنا عندما نشاهد حصان الشيخ عبد، نستبشر خيراً. وحتى الآن، أتذكر كيف كان الرجل يجمعنا، ويحصد غماراً من نباتات الفول الأخضر، ويقول لنا : "اجمعوا الحطب" ، فنجمع الحطب في كومة، فيضع هو حزمة نباتات الفول الأخضر فوق الحطب، ويوقد النار.. كنا نتفرج على النار، ونفرح بها، أو على الأصح،

وماهي إلا دقائق معدودات، حتى ينضج الفول الأخضر، فيقول لنا الرجل:" تعالوا كلوا." فنهجم نحن الأطفال؛ أولاد الجيران الفقراء، ونأكل (الهويسه) هكذا كانوا يسمونها هويسة.. وحتى الآن وإلى الأبد، ستبقى أكلة (الهويسة) من قرون الفول الأخضر، الطازجة، المشوية على النار، أفضل عندي من أكبر وليمة في التاريخ. كنا ننتشر في الجبال، فنشاهد الأرض الخضراء على مدِّ النظر، ملونةً بأزهار الحنون والنرجس والزنابق، ونبحث عن أعشاش العصافير.. لم نكن نؤذي العصافير، كنا نتركها حتى تكبر، ويصبح لها ريش، وتبدأ تحاول الطيران، فنلتقطها ونأخذها إلى البيت لنأكلها.. نعم نأكلها، فنحن جياع، ولم نكن نلتقي باللحم إلا في المناسبات! وكان الشيخ عبد يقضي بعض الوقت معنا، ويقول لنا عن صغار العصافير : "كلوها أنتم الجياع، أفضل من أن تأكلها الثعابين أو الوحوش!" كان الرجل محبوباً من قبلنا نحن أطفال القرية، وكان مهيباً من قبل الرجال.

كنت أقف قريباً من أبي، جليس محدِّثه الشيخ عبد، الذي يقول له :

"كلنا فقراء لله يا حاج احمد، وأنت تعرف، كان بيتنا عبارةً عن رواق، إسطبل مبني من الطين، نصفه للحمار والبقرة، ونصفه لنا، أنا وسامية. هكذا تزوجنا، لكنني باطحت واشتغلت وتعبت وفلحت الجبل. كانت أرضنا غير مستغلة، فزرعتها شجراً وقمحاً وفولاً وبصلاً وخيرات ربنا، وربنا فتحها علينا، وما قصرت مع سامية بشيء، نفضت الرواق، وبنيته بالحجر البلدي من الخارج، ودهنته بالشيد الأبيض من الداخل، وبنيت لسامية علّية ؛ ثلاث غرف نوم فوق؛ غرفة لنا، وغرفة للولدين، وغرفة للبنت." فقال له أبي :

"الله يخليهم لك يا أبو محمود ." فهزّ أبو محمود مهماز حصانه،المحمول في يده دائماً،وقال محدثاً والدي بحزن:

"وأنت عارف البنت تزوجت، والأولاد سافروا إلى الكويت، تركوا الأرض وراحوا إلى بلاد النفط.. قالوا: هناك نقودٌ أكثر.. ياليتهم ما سافروا. لم أوافق على سفرهم، لم أرض عنهم ،ولم أودعهم. قلت لهم يومها : هذه أرضكم، افلحوها. تركوني

ومضوا. بكيت لوحدي. النفط تدفق على وجوهنا وعمى عيوننا. تصور لو بقي كل شاب في أرضه، يزرع ويفلح، لكانت هذه الأرض خندقاً واحداً مليئاً برجاله، مليئاً بالمدافعين عن الوطن. ولكن كل شاب طال عوده، وتعلم للتاسع الإبتدائي، وسمع بالنفط، ونقود النفط، جرى يبحث عن الذهب. طيب نترك هذه الأرض لليهود يحتلوها! أم نهجم عليها وننبشها بأظافرنا، ونزرعها ونفلحها، ونعيش على ثراها؟ بقيت أنا وحدي، رأسي ورأس هذه المرأة. لكن والله يا حاج رأسها عنيد، وأنا في حياتي مستعد أن أقنع بلد، ولكن أم محمود مستحيل! عندما كنا فقراء، كانت سامية مثل الحمامة، تعمل وتشارك بإصلاح البيت وترشق الجدران بالشيد الأبيض، وبيديها تنظف وتقوم بأعمال البيت كاملة، وتتحمل الصعاب دون أي صوت، أو أي مطالبة من قبلها. وعندما شاهدتني اغتنيت، اختلف لون المرأة، واختلفت عقدتها، ونمت لها أظافر طويلة، وأصبحت نظراتها حادة، وازدادت نظراتها للمرآة. وأنت تعرف أن السن له حكمه، والمرأة بعد سن الأربعين يتوقف عمرها. فإذا إبتعدت عن المرآة، وجلست إلى جواري ونطقت قالت :أريد أن أشتري ذهباً، فجارتنا أم سهيل ليست أحسن مني! ولم يمض وقت طويل، حتى طالبت بتغيير فراش البيت. فقلت لها: حاضر. اشتريت لها عشرة فساتين (مردن) من القماش الذي لايوجد منه في طولكرم. ذهبت معها إلى نابلس، فاشتريناه من أجود الأقمشة. ودارت الأيام، فإذا بها تطالبني بأن أسجل باسمها أرضاً، وقالت : أم إبراهيم ليست أحسن مني، فلقد سجل لها زوجها حصة في الوطاة ! وبعد تفكير عميق، اقتنعت بأن الأرض أخرتها للأولاد، والأرض يومئذ لله، فسجلت حصة من الأرض باسمها. المرأة لم تفرح. كنت أتمنى أن أشاهد الفرحة على وجهها، أن أرى ابتسامة أيام زمان، أيام كنا فقراء. كان وجهها يزداد تجهماً كل يوم. وانفعالاتها تزداد في كل مناسبة، وغيرتها بمناسبة وبغير مناسبة. وفي النهاية وقع المحذور" فقال له أبي منفعلاً :

" ماهو المحذور يا أبو محمود لا سمح الله ؟

"طلبت مني يا حاج أن أبيع الحصان، فقلت لها:" الحصان! لا، لا يمكن!" فكررت طلبها، فسألتها قائلاً:" لماذا بيع الحصان؟" فأجابت بوجهها البارد:" نريد أن نشتري أطمبيل! الدكتور الصباغ الذي اشترى سيارة (كادالاك) آخر طراز، ليس أحسن منا!" دهشت لمقارنتها فصرخت فيها: "يا امرأة لا يوجد في قرية الدير كلها أطمبيل واحد. والدكتور الصباغ أولاً دكتور، ثانياً من مدينة طولكرم، وليس من قريتنا، أعني هو مدني، ونحن فلاحون!" فقالت بدم بارد:"أليس الفلاح ابن آدم!" قلت مدافعاً عن مواقعي بكل شراسة:

"الفلاح ابن آدم، ولكن الحصان يعني بالنسبة لي أشياء كثيرة. الحصان يعني الحراثة، والدراس، ونقل مواد ولوازم الزراعة، والأهم من هذا وذاك، أنني أنا خيال الحصان، وأنا أحبه، ثم أنا لا أفكر بالأطمبيلات، وبصراحة، أستحي من نفسي، وأنا أقعد

المــرأة ليــست بعقلهــا! "تريــديني أن أتعامــل مــع الأرض كإقطاعي، يشتري ويبيع! أنا فلاح ابن فلاح، فلن أبيع أرضاً، ولن أبيع الحصان، ولن أشتري الأطميبيل!" أم محمود يا حاج أحمد، أصيحت تبحث عن طريقة لصرف نقودي! صرت أتخيل أنها تخاف أن أتزوج، فماذا تفهم المرأة عندنا غير أنه إذا غني زوجها، فمعناه أنه سيتزوج عليها ! وأفضل طريقة كي لا يتزوج الرجل، هي إفقاره مرة أخرى. هذا الموضوع لم تبح لي به أم محمود، بل تخيلته أنا تخيلاً، وإلا ما السبب في هذا الانقلاب في السلوك والمعاملة !

مع كل هذا، كان الشيخ عبد يحب أم محمود، عرفت ذلك لأنني ضبطته ذات مرة متلبساً بمغازلتها، قائلاً لها:"أحبك ياسامية." واحتضنها محاولاً تقبيلها. عندها تنحنحت أنا، فانتبهت المرأة وقالت :

"ماذا تريد يا ولد؟" فأجبتها:" أرسلتني أمي لأقترض من عندكم ثلاثة أرغفة خبز، لأننا لم نخبز بعد، وسنردها لكم في المساء." فقال لها الشيخ:" أعطه يا امرأة خمسة أرغفة، ولاداعي لردها لنا."

كانت أم محمود، شقراء وجميلة، متوسطة الطول، ممتلئة الجسم، تلبس الثوب الأبيض (المردّن)، المطرز بزخارف الفلكلور الفلسطيني. وكنت أحب أن أشاهدها بهذا الزي الجميل. ونادراً ما كانت تنزل إلى الرواق، بل ونادراً ما كانت تخرج من العلّية، إلا إلى الشرفة البيضاء المرتفعة، التي تطل من غرفة نومها على القرية كلها. كنت إذا دخلت بيتهم مرسلاً من طرف أمي، أدخل من ساحة الرواق، وأصعد الدرج المكشوف بين جناحي الرواق إلى أعلى، لأصل إلى غرفة نومها.

وفي هذا اليوم بالذات، أرسلتني أمي لأستعير إبرة بابور الكاز، لأن إبرة بابورنا مكسورة، دخلت البيت فوجدت الشيخ عبد ممداً بطوله في أرض الرواق، فذهلت للمنظر! ولكنني لم أستطع التوقف، بل صعدت الدرج الحجري إلى العلّية، ومن قمة الدرج نظرت إلى غرفتها. كانت سامية تجلس على مقعدها، أمام المرآة المعلقة على الحائط الأبيض، وبيدها ملقط، تزيل

الشعر الزائد عن حاجبيها. وكان وجهها الأشقر بلون الشمام المقشور، وكانت إليتها من الخلف تنفرد منسابة، وتتكوم بنعومة جميلة على مقعد خشبي مدور دون ظهر. وهي تلبس قميص النوم الشفاف الزهري. لم أستطع أن أبقى متسمراً، واقفاً هكذا أمام الغرفة. ناديتها:"خالتي أم محمود." فالتفتت بوجهها مجيبة:"ما لك يا ولد؟"

"أمي تسلم عليك، وتقول لك: أعيرينا إبرة بابور الكاز." فقامت وأعطتني إياها وقالت:" أغلق باب الفناء ورائك." نزلت الدرج وأنا أقول:"حاضر." ولكنني استدرت وسألتها :" ماله عمي الشيخ؟" فقالت برطانة:"عمك مريض." قلت وكأنني أتحزب له:" ولماذا ينام في الأسطبل؟"

"صعب عليه أن يصعد الدرج، فنام تحت ."

"أليس هناك برد ورطوبة يا خالتي؟" فزجرتني قائلة:"وأنت ما لك يا ولد؟!" أجبتها محزوناً :"أنا أحب عمي الشيخ يا خالتي." فنفخت قائلة:

"ونحن نحبه أيضاً." افتقدت عزيزاً فسألتها:

" ولكن أين الحصان الأبيض. لم أشاهده كالعادة؟" فقالت مشمئزة:

"بعناه، لم يعد أبو محمود قادراً على المطاردة. صار عجوزاً، هل فهمت. روح لأمك خلص!"

الآن فهمت، إذن الشيخ عبد طريح الفراش، بسبب فراقه حصانه الأبيض، والآن فقط انتبهت لماذا ينام الشيخ عبد مكان الحصان. إنه ينام في إسطبل معشوقه الحصان، إنه يتذكر أطلال الحبيب، آثار معشوقه، الآن فهمت أن الصراع بين الشيخ عبد وزوجته سامية قد وصل إلى مداه، وأن الشيخ عبد قد أختار مكانه، ملتجئاً إلى حصانه،(ريحة الحبايب) إنه الآن يسكن روح حصانه، فهو أقرب إلى قلبه، وأصدق في التعامل معه من أم محمود. هكذا كنت أتخيل، وهكذا كنت أعتقد، وإلا لما نام الشيخ في مثل هذا المكان .

عدت إلى أمي وأنا أفكر بالشيخ عبد:"هل هكذا يموت الرجال ؟ كان رجلاً عملاقاً، هل هذه هي نهاية الإنسان؟ هل هكذا سوف أموت أنا؟ أنا حزين." أعطيت الإبرة لوالدتي وأنا أبكي. سألتني أمي:" لماذا تبكي؟" فشرحت لها ما شاهدت، لم تبك أمي، ولم تتعاطف معي، بل اتجهت إلى بابور الكاز، وضغطت منفاخه، فخرج الكاز، فنكشته بالإبرة، ثم أشعلت عود ثقاب فالتهبت النار. شاهدتها ناراً هائلة مكبرة آلاف المرات. وبعدها سمعنا أصواتاً وعويلاً في بيت الشيخ عبد.

هجمنا وهجم الجيران، كان الشيخ قد فارق الحياة، قالوا يومها: "إكرام الميت دفنه". وبسرعة حملوه على سلم خشبي كبير، ووضعوا فوق السلم نفس الجنبية الرقيقة، التي كان ينام عليها، وغطوه بالبطانية السوداء، وفوقها قطعة قماش

" إذا قابلك الملكان الشفيقان الرفيقان، فسألاك من هو ربك؟ فقل الله سبحانه، وما هو دينك؟ فقل الإسلام ديني، ومحمد نبيي، والقرآن كتابي و.." ولم أفهم يومها لماذا يقرأ هذا المقرىء على الميت، ما دام القرآن الكريم يقول: (فأنت لا تسمع من في القبور) بنص واضح لا لبس فيه ! ومن اين أتوا بهذه الخزعبلات، والتلقينات التي تشبه تلقين المسرح. أليست الجنة للمتقين؟ فلماذا يلقنه كلاماً، ما دام الله يعرف ما في الصدور؟ كنت أنا الوحيد الذي قعد يبكي بين القبور، بعد أن غادر الجميع المقبرة .

حكم الهدهد.

وأخيراً صدر القرار بتعييني مديراً. سيبدأ الناس يتحدثون عني، بعد أن كنت في السابق لست على بال أحد، وكثيراً ما كانوا يقولون لي:
"على بال مين يا اللي بترقص في العتمة!" كنت أشعر أنني مهمل ومنبوذ، فإذا دخلت ديواناً، لا يقف الناس احتراماً لي، وإذا مررت على جماعة، وألقيت عليهم السلام، فقليلاً ما يلتفت أحد إلي ، ويرد عليّ السلام. حتى السلام كنت لا أسمع رده من أحد. كانوا يقولون:"مقذوع رجل مسكين بهلول، على باب الله!" كنت أسمع وأسكت، ولا أجيب أحداً، كنت أعيش بلا عمل، وكنت قليل الحيلة، غير متعلم، ولا أعرف كيف أتصرف، ولكنني كنت أزور الأقارب والأباعد، فيتصدقون علي وعلى أولادي، بكيس طحين، أو يتبرعون لي بعدة قروش، وأنا أحاول جهدي أن أرد لهم الجميل؛ إما بحراسة ممتلكاتهم، أو بشكرهم ومدحهم في وجوههم. في وجوههم فقط، لأنني في ظهورهم أحسدهم، وأحقد عليهم، وأسأل الله تعالى: "لماذا أنعمت عليهم، وضيقت الرزق عليّ؟" ثمَّ أعود وأقول:"أرزاق! ولله في خلقه شؤون."

بقيت على حالتي، وتابعت المسير، إلى أن اهتديت إلى طريقة أوصلتني إلى الشخص المسؤول. قالوا لي:"إن الشخص الذي يستطيع أن يشغلك هو رئيس البلدية، وهو الذي يعين الموظفين ، لأن الوظائف شحيحة هذه الأيام، وهنيئاً لمن يجد وظيفة حكومية." وهناك سألني رئيس البلدية:"ما اسمك؟" فأجبته هكذا من الباب للطاقة:"مقذوع." فتبسم الرئيس وهو يسألني: "مقذوع! هذا اسم بني آدم؟" فأجبته واثقاً من نفسي: "نعم اسم بني..!" فأضاف يداعبني بسخريته: "هل تعرف من هو المقذوع؟ يقولون أقذعه شتماً، أي شتمه بشدَّة!" فشرحت له قصة مولدي قائلاً : "كانِت والدتي لا تنجب أطفالاً، فحين ولدتني، قرر والدي أن يسمّني مقذوعاً، كي لا يحسدني الناس على عيشتي، مجرد بقائي حياً. وهكذا أكبر وأعيش، وها أنا قد عشت والحمد لله، الذي لا يحمد على مكروه سواه، وعمري الآن أربعون سنة." سر الرئيس بفصاحتي، فسألني:"يا مقذوع هل تجيد التنظيف؟" فقلت وأنا في غاية الانضباط: "نعم يا سيدي (النظافة من الإيمان.)" اطمأن الرئيس فأصدر بلاغه الخاص بمستقبل حياتي:"يا مقذوع قررنا ان نعينك مديراً لمبولة في وسط المدينة." فرحت، ولكنني استهجنت الأمر! فسألته مسروراً :"مديراً مديراً؟" فقال المدير:"نعم مديراً مديراً!" كررت سؤالي للتأكد فقط:"تعني مديراً عاماً !" نعم مديراً عاماً." قالها وهو يضحك! وبصراحة، انشرح صدري، فتبسمت بدوري، تضامناً مع

والآن جاء دورك يا مقذوع في المسؤولية، وأنت تعرف أن المسؤولية عندما تندلق على كاهل رجل مثلك، فالحمل ثقيل (أنا مسؤول إذن أنا عائش ميسوط، والله منعم ومتفضل)، كان جارنا الأهبل عطية يقول:"أنا أفكر إذن أنا مسؤول"، ولكن عاقلي بلدتنا يقولون العكس :"أنا مسؤول، إذن أنا عائش فوق الريح." الآن جاء دورك لتنتقم منهم، من الجميع الذين لم يكونوا يعتبرونك ابن آدم! ستنظم الدخول إلى المبولة. لقد قرروا لك عشرة قروش، رسوماً على كل رأس، كان الزوار لمثل هذه الأماكن لا يدفعون نقوداً، وأما الآن، فالدفع قانوني، وعلى الجميع، مهما اختلفت شخصياتهم، وأنت لا يهمك، فإذا قرر أحدهم أن يدخل دورة المياه، وليس معه عشرة قروش، فلن يدخل، ستدعه يفعلها في الشارع العام، بالطبع هو لن يفعلها في الشارع العام، وسيتألم، وينظر إليك نظرة شزراء، ويمضي في طريقه، وأنت بصفتك مدير عام لأكبر مبولة عامة في وسط المدينة، أصبحت خبيراً في بني آدم، وفي كثير من الأحيان، تعمل كاستشاري في مثل هذه المشاريع، وعندما تدخل يقولون: "دخل السيد المستشار!" ونحن المدراء العامون في أعلى المستويات الإدارية، كثيراً ما سوف نلتقي، وسنتشاور في الأمر، وكثيراً ما سنبحث القضايا العامة على مستوى القمة، ولو أنني أتميز عنهم، بأنني أبحثها أيضاً على مستوى القاعدة. سأصبح علماً في الحارة كلها. بائع القهوة أبو الخل، سيصب لي فنجان قهوة مجاناً، وهو يقول:" أنا أعرف قهوتك يامقذوع، أنت تحب أن تشربها (عالريحة)" وسيدخل فيتبول مجاناً، وأنا سأسامحه، سيدخل متفاخراً بأنه صديق المدير العام، ويبقي دلّة القهوة عندي، بالحفظ والصون، فأنتهز فرصة غيابه في بيت الراحة، وأشرب فنجاناً آخر مجاناً. وسيمر أبو فارة ؛ بائع الكعك والبيض، دافعاً عربته المتجولة، ووجهه ممتقع بلون أحمر قاتم، سيوقف عربته أمامي، ويدخل دورة المياه،

دون أن يدفع، وهو يقنعني بأنه من أصحاب البيت، ولكنه يكون داخل نفسه مقتنعاً أن نفسي دنيئة على كعكة وبيضة مسلوقة. سأقشرها منتهزاً فرصة دخوله دورة المياه، وأحشوها داخل الكعكة، وأرش عليها ملحاً وزعتراً وفلفلاً. يا سالاااااااااااام ، ثم أنهشها نهشاً، قبل أن يعود أبو فارة، وقد أشرقت قسمات وجهه، وخرج من بيت الراحة مستريحاً مبتسماً، ولكن سرعان ما تعود تقاطيع وجهه إلى ما كانت عليه، عندما يشاهد أثر اعتدائي الوحشي على الكعك والبيض، ويشتمني ويقذعني شتماً، فأدفع له نصف ثمن ما أكلت، ويدفع عربته وهو يصيح: " كعك وبيض كعيييك!" وإذا حدث وأن طافت المجاري، وعامت فوق بلاط دورة المياه، بسبب انسداد المجاري، فإن صاحب المكتبة المجاورة للمراحيض، سيخرج من المبولة، وهو يتكىء على رؤوس نعليه، كي لا تغرق في بحر المجاري العائم، وهو يقول لي :"أنت اليوم لست(مدير عام) بل أنت(مدير عائم)!" وأنا سأشهد كل هذه الأحداث، فاضحك وأضحك، حتى تتراقص خاصرتي من شدة الضحك، إنه عالم مضحك. عالم مدهش، عالم غريب، فالإنسان كائن مدهش يجمع حركاته وتصرفاته ومثالياته وعيوبه ونظافته وقذاراته. تتجمع كلها معاً في كيان واحد اسمه الإنسان! سأتحكم بكم يا أولاد آدم ، حكم الهدهد. وأنا في الحقيقة لا أعرف ما هو حكم الهدهد. هكذا سمعتها، ولكن حكم الهدهد مهما كان صعباً، فلن يكون أسوأ من تحكمي بزبائن دورة المياه العامة! مدير عام، مدير عائم، هذا لا يهمني، المهم أنني مسؤول مسؤولية مطلقة عن هذا الحوض المائي، ذلك لأنه ليس من المعقول أن يذهب أحدهم ويشتكي إلى الرئيس عن مثل هذه القضايا، إذا ما كان فيها تقصير. ومعنى ذلك أنني سأحكم وأرسم كما أريد، غير خاضع حتى لحكم الرئيس، وسأكون حاكماً مستقلاً إستقلالاً تاماً، وصلاحياتي مطلقة، وكلمتي لا تنزل على الأرض، وأنا أجمع العشرة قروش، تلو العشرة الأخرى، وهكذا تتجمع في يدي قبضة من الشلنات في كل لحظة، وربنا يضع سره، في أضعف خلقه، ويعطي الرزق حتى من ضائقة عباده، لا وضعكم الله في ضائقة، كي لا أتحكم فيكم، حكم مقذوع، الذي هو أصعب من حكم الهدهد.

حب مدمر

نظراً لانضباطيته في العمل، وتدريبه لعدة أفواج من الشرطة الدولية لمكافحة المخدرات، وتقديم أفضل الخدمات، والتعاون مع منظمة الإنتربول لمكافحة المخدرات، قررت الأمم المتحدة تعين الكولونيل حسن عبد العظيم، قائداً للأمن الوقائي في باليرمو في صقلية، وذلك لإنجاز عملية أمنية، تحت شعار "عالم بلا مخدرات" من أجل القضاء على أكبر مركز تجارة مخدرات في العالم .

وبسرعة فائقة، التحق الكولونيل حسن بموقعه في مديرية الأمن الوقائي في باليرمو، واتخذ له مكتباً محصناً في مركز المديرية، وغرفة نوم مجاورة للمكتب. وقرر أن ينام بين ضباطه بالحفظ والصون، وبسرعة بث جنوده المدنيين بين الناس، وطلب منهم تقديم تقريراً مفصلاً عن حركة المخدرات في صقلية كلها. وطلب دراسة خطوط النقل، ومعرفة خارطة شبكات المخدرات في المدينة وضواحيها، وامتداداتها الإقليمية والدولية، وكتابة التقارير، دون التدخل بأحد منهم .

والكولونيل حسن عبد العظيم، في الخمسين من العمر، ومتزوج من امرأة عربية اسمها سلوى، في الثلاثين من عمرها، يعيشان في روما، إذ كان الكولونيل حسن ضابطاً صغيراً في الشرطة العربية، ومنها سافر إلى إيطاليا في دورة خاصة بمكافحة المخدرات، ونقل المعلومات بخصوص الجرائم الدولية، وحصل هناك في الدورة على المرتبة الأولى، فاستقطبته الشرطة الدولية لمكافحة المخدرات، ليعمل معها هناك، من مركزهم الإقليمي في روما، وبعد أن استقرت به ظروف العمل، وأثبت انضباطية عالية، وتفانٍ لم يسبق له مثيل في الضبط والربط، حصل على عدة ترقيات وزيادات في راتبه، فتحسنت أحواله المعيشية، وصار يرسل إلى أهله مساعدات مالية، وبالمقابل قالت له أمه الغيور بالهاتف :

" إن الشباب الذين يتزوجون من حارتنا، هم اليوم من جيل أولادك. آن لك الأوان لأن تتزوج."

وفعلاً وافق حسن على الزواج، فأرسلت له الوالدة أجمل هدية بمناسبة ترقيته كولونيلاً في قوات الإنتربول.

كانت الهدية هي زواجه من الآنسة سلوى. وفي عجالة من الزمن، أنجبت له طفلاً سمّياه علياً، وطفلة سمّياها أسمهان، وعاشا حياة عادية في إيطاليا استمرت بلا مشاكل، حتى نقل الكولونيل حسن إلى باليرمو.

وخلال الأسبوع الأول من متابعته قضايا المخدرات من مكتبه الحصين في باليرمو، استطاع حسن عبد العظيم أن يحصل على معلومات شبه متكاملة عن شبكة تهريب المخدرات، وعلى أصناف البضائع المنقولة ؛ كالحشيش والهيروين والأفيون والكوكائين والـ أل.أس. دي. وأسماء أخرى لا أول لها، ولا آخر، والتي تنقل من وإلى مختلف الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط، ومن ثمّ يتم تبادل كثير منها مع دول الأمريكيتين. استطاع الكولونيل حسن أن يمسك بيديه كثيراً من خيوط اللعبة، وكان ذهنه ليلاً ونهاراً منصباً على متابعة القضية. ورغم عدم رضاه عن السياسة الدولية، إلا أنه كان يؤمن فعلياً بأن العالم سيكون جميلاً بلا مخدرات، وستصحو شعوب دول العالم النائم من التخدير، وينفضوا عنهم غبار الاستغلال والاستعباد، فيمنعوا الإمبرياليين من نهب ثرواتهم، ونقلها من الدول الفقيرة إلى الدول المتحضرة الغنية، كي لا يزداد الفقير فقراً، والغني غنىً. كان يؤمن بعدالة القضية التي يناضل من أجلها، ورغم إيمانه بأن "حاميها حراميها" وأن اللعبة أكبر بكثير من النظريات التي يتبجح بها، وأكبر منه بكثير، إلا أنه قبل التحدي، وقبل أن يقوم بالدور.

والذي ميّز قيادته هنا، أنه قبل أن يحصل على كتاب التفويض من حاكم المدينة، ورئيس البلدية، كان قد حصل على معلومات سرية متكاملة عن شبكة مخدرات، وفور حصوله على التفويض القانوني، أطلق أفراد الأمن التابعين له، وخلال ساعات معدودة وقبل أن يتمكن قادة العملاء من تسريب معلومات كتاب التفويض، والقبض على المهربين، استطاع أن يقبض على مئات المتلبسين بجريمة حيازة المخدرات، أو نقلها، أو الاتجار بها، أو تخزينها في بيوتهم، أو جحورهم، وأوكار تواجد هذه المخدرات مع أصحابها.

هكذا كان الكولونيل ذكياً وصاحياً، ومتقناً للعبته ضد تجار المخدرات، وهكذا استطاع أن ينفذ ضربته الأولى، إيماناً منه بأن الضربة الأولى للذي يبدأ أولاً .

هزت ضربته كل أرجاء صقلية، وتأثر بتلك الضربة، معظم تجار المخدرات في العالم، وتناقلت الصحف العالمية أخبار نجاح الكولونيل حسن.

كان هذا وجه العملة، ولكن ظهر العملة لم يظهر بعد، فلكل عملة وجهان، ولكل فعل رد فعل. ولكن الكولونيل عبد العظيم كان محتاطاً لردة الفعل، ومستعداً لامتصاص الضربة المعاكسة، وذلك بالعمل بسرعة قياسية من جهة، ومن جهة أخرى فهو يستحكم في مكتبه، وغرفة نومه داخل المعسكر، ولا يغادر مديريته، ويعقد اجتماعاته مع ضباطه طيلة النهار، ويطّلع على

أصبحت القضية تأخذ بعداً خطيراً، وكان المخفي أعظم، ففي صباح اليوم العاشر لسفر حسن عبد العظيم إلى باليرمو، اتصلت زوجات بعض الشخصيات العربية، وبعض الصديقات والصاحبات مع بعضهن، واتفقن على زيارة السيدة سلوى في شقتها .

اجتمعت السيدات والصاحبات والصديقات في بيت الكولونيل حسن، لتناول الإفطار مع السيدة سلوى، وبعد تناول الطعام ، تحدثت النساء كالعادة في أحاديث كثيرة، وتطرقن للحديث عن الكولونيل حسن، وكيف يعيش في الغربة في باليرمو، وقالت السيدة أم شفيق مازحة ضاحكة :

" الكولونيل الآن (دائر على حل شعره!)"

وعلى المنضدة وضعت السيدة أم إبراهيم فنجان قهوتها المصبوغة حافته بحمرة شفتيها ، ثم قالت:

" الكولونيل ضابط كبير، وحوله خدم وحشم، والنساء في باليرمو في خدمته ليلاً ونهاراً فقط!"

وسحبت السيدة أم بشار نفساً من سيجارتها البنية اللون، ثم قالت:

" أنا لا أعرف كيف تتركينه يذهب وحده إلى باليرمو يا سلوى؟ الرجال لا يتركون وحدهم، فهم يخافون أن ينام وا وحدهم في الليل، بل يبحث الواحد منهم عن امرأة يخبيء خوفه في حضنها، هارباً من عذابات مواجهة الناس في السوق، فما بالك بهذا الرجل، الذي يقضي وقته بمصارعة أشرس حيتان المخدرات الدوليين في باليرمو! ألا يحتاج إلى من تحميه داخل حضنها، وتهدهده حتى يغفو، ليصحو صباح اليوم التالي مرتاحاً، قادراً على استمرارية المواجهة؟"

ورشفت أم صخر أخر رشفة من فنجان قهوتها، وقلبته على صحن الفنجان، ثمّ أعادت النظر بداخله فارغاً وقالت:

" أرى الكولونيل (أبو علي) يقف في مهب الريح، ويناديك يا سلوى! ويده ممدودة إليك."

وقالت السيدة خيرية وهي تنفض سيجارتها على المنفضة :
" وأية ريح ! المثل يقول : (الباب الذي يأتيك منه الريح، اغلقه واستريح!)"

ووضعت السيدة شيرين ساقاً فوق ساق، لتظهر جمالية المخفي الأعظم، ثم قالت:

" إذهبي يا اختي إلى زوجك، وخطيئتك في رقبتي، اسأليني أنا، الرجال كلهم جبناء، ولا يجرؤون أن يخونوا زوجاتهم، إلا وهم بعيدون عنهن. وفي الغربة يأخذون راحتهم!"

وأعادت السيدة جورجينا دهن شفتيها بالأحمر، وهي تنظر إلى مرآتها الصغيرة ، ثم التفتت إلى سلوى قائلة:

" لا تذهبي بحجة هذه القضايا، فالكولونيل حسن رجل محترم، وسمعته طيبة، اذهبي فقط بحجة أنك مشتاقة إلى زوجك، وأعتقد أن هذا حق مشروع للزوجة، وهناك تستطيعين أن تتابعي أمورك بنفسك."

كانت عيناها تقرآن وجوه النساء، وأذناها تمتصان المعلومات والانطباعات، وهي تقدم للضيفات الشراب والسجائر. لم تعلق على أي شيء. وعندما شعرت النساء أن الكيل قد طفح، انتقلن إلى الحديث عن طراز الملابس والأحذية الإيطالية، وأخبار أحدث المغنيين، وقضية اختطاف أولاد الأغنياء، وافتدائهم بملايين اليوروات، وحريق أوبرا البندقية، وملكة جمال ألمانيا عراقية الأصل. وفي نفس الليلة اتصلت السيدة سلوى بزوجها الكولونيل حسن قائلة له :

" كيف حالك ياحسن؟ يا ترى تنام مغطى، أم بلا غطاء؟ وهل تأكل جيداً ؟"

فأجابها الكولونيل:" أنا بخير، لقد نجحت في المهمة.

"اشتقت إليك يا أبوعلي!

"كلها مسألة أيام وسأعود إليك قريباً."

" أنا مشتاقة لرؤيتك اليوم، وليس قريباً!"

"هذا صعب فأنا أعيش بين ضباطي داخل المديرية، وأنام في غرفة نوم صغيرة، ملحقة بالمكتب."

" أنت قائد المنطقة، أي إنك الآمر الناهي، وتقول إنك نجحت في المهمة، فماذا تريد بعد ذلك غير المكافأة؟ وزيارتي لك هي المكافأة. أنا لا أستطيع أن أعيش من غيرك يا حسن."

"لا تنسي يا حبيبتي أنني في مهمة صعبة، مهمة قتالية."

" لا تنسى يا حبيبي أن وراء كل عظيم امرأة، وأنا سأكون معك. أطمئن على طعامك وشرابك، وعندي صحتك تعادل الدنيا، فأنا أخاف على صحتك من التدهور، إذا لم أكن أطعمك بيدي هاتين، وأقبلك بشفاهي الحارة المتلهفة دائماً لقبلاتك ، ف..."

"يـا امـرأة أنـا لا أسـتطيع اسـتقبالك فـي بيتـي، فـي داخـل المديرية، وبين الجنود والمكلفين."

"أنا زوجتك وإذا نمت معك في غرفة نومك، فهذا أمر طبيعي، وليس مـستهجناً، فزوجـات رؤسـاء الـدول يـسافرن معهـم إلـى البلدان التي يزورونها. وحـسب (الإيتيكيـت)، فلـيس مناسـباً أن يذهب القائد دون زوجته. ويكون الـزوج مـع زوجتـه أكثـر احتراماً وهيبة وتوازناً بين الناس والأصدقاء والمعارف!"

"يـا امـرأة، أنـا أكثـر توازنـاً بـين ضـباطي وجنـودي! نحـن فـي معركة!"

"طول عمرك وأنت في معركة، وما ذنبي أنـا المتزوجـة لرجـل يعيش كل حياته في معركة؟ وهذه أيـضاً فرصـة لـي لمـشاهدة صـقلية، أنـت تمـارس عملـك، وأنـا أزور وأشـاهد مـدن وطبيعـة صقلية الجميلة."

" الوقت غير مناسب للزيارات، فقد يختطفونك!"

"سأكون بحراستك أنت وجنودك، وهل أنـت خـائف إلـى هـذه الدرجة؟! أعتقد أنك دائماً شجاع، وهذه المرة أراك تجـبن حتـى عن اصطحاب زوجتك إلى صقلية."

لم تستسلم سلوى، بل تابعت دفعها زوجهـا باتجـاه الحـائط المسدود قائلة له بالهاتف :

"بدأ الفار يلعب فـي عبـي! فكيـف أسـتطيع أن أطمـئن إلـى أنك لا تعيش الليل مـع بعـض نـساء صـقلية الجمـيلات، اللـواتي يتمنين تقديم الخدمة لـك لـيلاً ونهـاراً؟ لـو كنـت بريئـاً مـن هـذه التهمة، لما صددتني بهذه القوة. أنا لا أطلب شيئاً. كلها مسألة زيارة من زوجة إلى زوجها، ولـو كـان وضـعك فـي بـاليرمو بريئـاً، فلـن تمـانع مـن زيـارتي إليـك، وقـضاء عـدة أيـام معـك." فقـال الكولونيـل لنفـسه: "المـرأة تهـذي!" وتـابع إجاباتـه للمحققـة النسائية: "أكيد أنك جننتِ يا امرأة!"

"أنا لـم أجن،ولكـن واجبـي يقـضي أن أهـتم بـك، وأن أحـافظ عليك، وغيرة الزوجة على زوجهـا تعنـي أنهـا تحبـه، وأنـا أحبـك وأريد أن أكـون إلـى جانبـك، فهـل تعتبـر هـذا جنونـاً؟ إذاً مـا هـو العقل برأيك؟ أن أعيش أنا حياتي في روما، وأنت تعيش حياتـك فـي صـقلية؟ يكفـي أنـك تزوجتنـي فـي نهايـة عمـر شـبابك!"

تراجع الزوج أمام فارق السن ، فقال مستسلماً :

"إذا كنت مـصرةً علـى رأيـك، وحتـى أُثبـت لـك أننـي أُحبـك، وأنني بريء من كل أحلامك المزعجـة، فلتتفـضلي يـا أم علـي،

وغداً سأحجز لك بالطائرة المتجهة من روما إلى باليرمو، في الساعة الرابعة من بعد الظهر."

وفي اليوم التالي خرج الكولونيل عبد العظيم من وكره، من مديرية الأمن الوقائي إلى مطار باليرمو، ودهش المراقبون لمشاهدته لأول مرة في الساحة العامة، في قاعة مطار باليرمو، حيث استقبل زوجته عند بوابة الطائرة، وانطلقت سيارته تحفها دراجات الأمن، أمام وخلف موكب سيارته الخاصة.

وفور وصول سلوى غرفة نومه، فتشتها بدقة تامة، لتطمئن على أن كل شيء يسير على ما يرام، وعندما لم تعثر على أي شيء ذي بال، شعرت بكونها سعيدة مع زوجها، وسعيدة بمشاهدة صقلية الجميلة، وكادت الفرحة تطير من عينيها .

دعا حاكم صقلية الجنرال جورج نيكولاس، الكولونيل حسن عبد العظيم وزوجته سلوى إلى حفل عشاء، أقيم في فندق هيلاري، وحضرته عائلات الأصدقاء. كان العشاء على شرف زوجة الكولونيل الزائرة لصقلية، وبذلك لم يستطع الكولونيل رفض الدعوة، ومبدئياً لم يستطع الحاكم تجاهل زيارة زوجة الكولونيل إلى بلاده، وكان واجباً اجتماعياً دعوة الكولونيل وزوجته، لإشعارهما بكرم الضيافة، وكذلك هي فرصة للتحدث في القضايا الأمنية للمنطقة، ودور الأمم المتحدة في إرساء السلام فيها، وكانت أمسية رائعة في ذلك المطعم المحمي بواجهات زجاجية، فوق سطوح الفندق، والمطل على مشاهد ليلية ساحرة للمدينة، الممزوجة مع مياه البحر الأبيض المتوسط، الذي يبدو وكأنه يغلف الكرة الأرضية من ذلك المكان الشاهق الارتفاع، حيث احتفل الجميع بعشاء جميل، تخللته رقصات شعبية، ومشروبات وطنية محلية، وكان الطعام أيضاً مخصصاً من الأطعمة الصقلية، بهدف إضفاء جو صقلي جميل ..

خرجت السيدة سلوى في تلك الليلة، سعيدة منتشية، وعادت برفقة زوجها، وفي الليل، وبينما كانت سيارة الكولونيل تنطلق عائدة من الفندق إلى المديرية، كان حراس قادة تجار المخدرات يتابعون المسيرة، ويراقبونها، ويجمعون المعلومات المطلوبة.

وفي غرفة نومه، قالت سلوى للكولونيل :

"هل هذه غرفة نوم ؟! كأن فندق هيلاري رائعاً، القاعات الجميلة، والحياة الفارهة، وأنت يا مسكين تنام في هذه الغرفة، التي لا تختلف عن غرفة سجين انفرادي! ولا تختلف عن غرفة مفردة لمعتقل من كبار تجارة المخدرات! حتى غرفة ذلك المعتقل، قد تكون مجهزة بخدمات أفضل." فأجابها مستسخفاً حديثها:

"وهل كانت تخيلاتك ومعتقداتك، تصور لك أنني أعيش حياة فارهة مع النساء اللواتي يشاطرنني الغرام في باليرمو؟ هذه الغرفة هي حياتي هنا. وأنا لم أنزل إلى الشارع، ولم أدخل قاعات المطار، ولا قاعات الفنادق هنا في صقلية، إلا للاحتفاء

"ولا تنس إن مزيداً من ضغط العمل، قد يؤدي إلى مرض الضغط، يا كولونيلي العزيز، لقد أتيت هنا للترفيه عنك! الجنود الأمريكيون في فيتنام كانوا يحرقون الفيتناميين في النهار، وفي الليل يطالبون بغانيات للترفيه عنهم، وأنا زوجتك وأم أولادك، أتيت وقلبي عليك لأرفه عنك، فهل هذا خطأ أيها المحارب؟ اسمع لدي طلب."

"تفضلي."

"أريد أن أقضي ليلة في فندق هيلاري برفقتك."

"لماذا ؟"

" لنعيش ليلة ممتعة، خارجة عن شدّ الأعصاب المستمر الذي تعيشه في باليرمو."

"هذا غير ممكن."

"لماذا؟"

"دواعي الأمن أولاً، ومعنوياتي ثانياً، وانحرافي عن مهنتي ثالثاً!"

"ليلة واحدة يا ابو علي، تعد من أحلى ليالي عمري. أنا أتيت لأستمتع معك وأمتعك! أنت وظيفتك مع جنودك في النهار، قم بها كما تريد، وأنا وظيفتي إسعادك في الليل! ثمّ إنها ليلة واحدة، وبعدها سأعود إلى روما، لحين انتهائك من مهمتك، أو قدرتك على أخذ إجازة عمل، نقضيها معاً في روما."

كان الكولونيل مطيعاً لزوجته، ومحباً لها في نفس الوقت. وفي قرارة نفسه، أراد أن يسعدها في تلك الليلة من جهة، ومن جهة أخرى أن يبعدها عن أعين ضباطه وموظفيه، إذ لا يجوز خلط الأوامر العسكرية بالنساء أو الزوجات، خاصة داخل الثكنات العسكرية، ولذلك وافق، وحجز لها غرفة مزدوجة في فندق هيلاري الفخم، وذهب معها لقضاء بعض الوقت.

كان يشعر في قرارة نفسه، أنه وزع اهتمامه بين زوجته من جهة، وبين انضباطه في المراقبة والمتابعة والاعتقال من جهة أخرى! لكنه حائر لا يدري ماذا يفعل، فطمأن نفسه قائلاً:

" هي ليلة وتنقضي، ويعود كلٌّ حي إلى موقعه. وأيضا زوجاتنا لهن واجب، وهي لا تطلب سوى حقوق الزوجة، وتقوم

بواجباتها أيضاً. ولا مانع من قضاء ليلة استراحة مع زوجتي. إنها أوامر الداخلية! هكذا يقولون."

قضى الكولونيل أجمل أيامه ولياليه، مع زوجته في فندق هيلاري ذي الخمسة نجوم، وفي صباح اليوم التالي، وبعد تناولهما الإفطار في إحدى مطاعم قاعات الفندق، قررت السيدة سلوى الذهاب للسباحة في البركة الداخلية للفندق، وذلك قبل أن يأتي ظهر اليوم المقرر للمغادرة، وبعد نصف ساعة، تبعها الكولونيل حسن عبد العظيم إلى بركة السباحة الداخلية، بواسطة المصعد، وداخل المصعد اللعين، كان بانتظاره مسلحان يحملان مسدسين كاتمين للصوت، فأطلقا النار على المغدور؛ الكولونيل حسن، وغادرا الفندق بصمت، ودون أية رقابة .

عادت السيدة سلوى إلى بيتها في روما، يحيطها احتفال مدجج بالسلاح والرهبة والحداد، وهناك في روما أعد لها حفل بهيج، تحدث فيه قادة الأحزاب السياسية، والنقابات المهنية، والهيئات الدولية، وممثلو الأمم المتحدة، وصرفت لها بطاقات إعاشة، وبعثات دراسية جامعية لابنها علي، ولابنتها أسمهان، وقدمت لها إحدى الجهات الخيرية مفتاح سيارة فيات من أحدث طراز، ورشحت السيدة سلوى عبد العظيم، للحصول على جائزة للسلام، وتناقلت الصحف أخبارها، لدرجة أنها أصبحت تتعود كل صباح على شراء معظم الصحف والمجلات التي تتوقع أن تتحدث عنها، وعن أحداث باليرمو.

وهكذا تفرغت السيدة الجميلة سلوى، لخدمة القضايا والنشاطات الاجتماعية العامة في روما .

الاندفاع باتجاهات متعاكسة!

الفرحة التي عبرت عنها كاتي، لدى استقبالها لي في شقة والدها، الكائنة في الطابق الثالث من إحدى عمارات برلين لم تدهشني، فلدى مشاهدتها لي أصعد درجات المدخل الرئيس، وأقترب من باب شقة والدها، صاحت مرحبة، وقفزت عدة درجات، لتستقر بين أحضاني، وكانت فرحتي غامرة وأنا أحتضنها، وأصعد معها الدرجات المؤدية إلى باب شقتهم، ورغم مرور أربع سنوات على علاقتي بكاتي، إلا أنني لم أزرها في بيتها مرة واحدة، وكانت هذه الزيارة مناسبة للاحتفال بعيد ميلادها، الذي صادف حفل تخرجنا أنا وإياها من جامعة برلين، وكانت دعوتها لي للتعرف على والدها، إشارة لموافقته على خطوبتي لها، والتي تكللت بزواجنا فيما بعد .

وعلى عكس ترحاب كاترين، والتي أدلعها بكاتي، فإن السيد موللر ؛ والدها، لم يرحب بي كما كنت أتخيل، فلم يمد يده لمصافحتي، ولم يبتسم في وجهي، بل اكتفى حينما نادته كاتي ليتعرف علي، بأن خرج من غرفته وأطل بوجهه المتجهم، مستنداً على حلق الباب، وكأنه يطّلع، أو يتعرف على ما يحدث فقط، ثمّ عاد واختفى داخل غرفته، ولم ينبس ببنت شفة. وكانت كاتي تعبر عن فرحتها البهيجة، وتتعلق برقبتي، وتضحك وهي تقول:

" وأخيراً استطعت أن امسك بيدي الاثنتين، الشمس والقمر، النجاح والحبيب ! أنا فرحة جداً بقدومك إلى بيت أبي يا فارس."

شدتني بيدها، فدخلنا غرفة نومها الخاصة، حيث كانت الكتب متناثرة على مكتبها وسريرها، ويقبع جهاز كمبيوترها في زاوية أخرى، ومقعدان فارغان في وسط الغرفة، احتللناهما، وهات يا أحاديث، إذ قلت لها:

" بقدر سعادتي الغامرة بدخولي بيت أبيك يا كاتي، وفرحتك الغامرة باستقبالي، فأنا أستغرب عدم ترحاب والدك بي! أيكون السبب هو أنني عربي، ووالدك لا يحب العرب؟" فقالت كاتي:

" لا أبداً. على العكس، فوالدي لا يكره العرب، وإنما هو لا يشعر بالأشياء، فهو كما ترى، رجل متقاعد، فاقد للحياة بكل

معانيها، فلقد أمضى بداية شبابه في فترة المراهقة مع أشبال هتلر، يركض مع أفراد حزبه، وجماعات جيشه، ويقتنع بأفكاره، بأنهم سيحتلون العالم ويحكمونه، وهكذا انطلق شاباً مع الجماعة باتجاه بولندا وروسيا، ليجد نفسه بعد خراب برلين، تحت مظلة ستالينية شيوعية، أدخلت أنظمة ومعتقدات جديدة، قوامها الإخاء والمساواة، ومقاومة جشع الرأسمالية. قاوم أبي هذه الأفكار مع أبناء جيله من الشبان إلى فترة وجيزة، ولكنه استطاع بعدها أن ينسى أفكاره الهتلرية، وأن يتحول إلى رجل آخر، رجل يؤمن بأفكار جديدة، أتخيله وهو يتحول من فكر هتلري، إلى فكر شيوعي، وكأنهم فتحوا عظام رأسه، واستأصلوا دماغه النازيّ، ووضعوا مكانه دماغاً شيوعياً، ثمّ أقفلوا عظام رأسه، وأعادوه بنفس شكله السابق، ولكن باندفاع جديد، معاكس للاندفاع السابق، وهكذا استطاع أن ينتظم ضمن صفوف الحزب الشيوعي، وبدأ حياته الجديدة، عاملاً في مصنع، وبعد طول انتظار، حصل على شقته هذه، وتزوج، فأنجبت له والدتي طفلين. وبعد طول معاناة، أصبح السيد موللر ركناً من أركان الحزب الشيوعي الألماني، يحسب له ألف حساب، ويستشار في كل صغيرة وكبيرة، في المصنع، وفي الحياة العامة، ولكن حياتنا المادية – كما ترى – لم تتحسن، فالشقة قديمة، وشبابيكها آيلة للسقوط، وجدرانها مشروخة، والخدمات العامة للشقة وللعمارة، في حكم المتوقفة عن العمل، مما يضغط على أرواحنا لشراء أجهزة خاصة بنا داخل شقتنا على الأقل .

وكانت صدمة والدي كبيرة، حينما انهار سور برلين، وجاء رأس المال الألماني الغربي، ليشتري الأرض الألمانية الشرقية، وما عليها من مصانع ومتاجر، والتي حولها إلى مستودعات، وأماكن خربة، لتطغى عليها الصناعات الغربية المتطورة في الحركة والاستثمار الأسرع .

وهكذا ضاع أبي، وتم تجريفه مع ركام بقايا المصانع الألمانية الشرقية، والتي اعتبرت جزءاً لا يتجزأ من تماثيل لينين، التي تم تجريفها مع سور برلين، وباقي المصانع القديمة. أصبح والدي منبوذاً، بعد أن تحطمت مجاذيفه، وقاربه وأضلاعه معاً. في هذه الأثناء توفيت والدتي، وأنت لا تعرف معنى وفاة زوجة رجل في الستينات من العمر ، لأنك لم تعش هذه المعاناة.. لم يكن لدى أبي رصيد مالي، بصفته أحد أقطاب ألمانيا الشوعية، فأصبحنا نبحث عن طعام من يد الرأسمالي الألمانيّ الغربيّ. وطالب أبي بوظيفة، فقالوا له : "أنت في سن التقاعد، ونحن أمامنا مسؤولية تشغيل الشباب الجدد، الذين يستطيعون استيعاب التقنية الحديثة، وتنشيط رأس المال، وليس العجائز الذين تحنطوا بالأنظمة الشيوعية أمثالك." فقال لهم والدي :

" إذن أعطوني تقاعداً لأعيش به." فقالوا:

" نعم سنعطيك تقاعداً يعادل راتبك الذي كان في السابق ؛ حوالي ثلاثمئة مارك الماني شرقي شهرياً، وهي تعادل حوالي عشرة يوروات حالية شهرياً، هذا هو تقاعدك الذي تستحقه."

لم يكن والدي في مثل هذا العمر يستطيع أن يتحمل كل هذه المعاناة.. تربيته النازية ثمّ تحوله إلى المبادئ الشيوعية، ومن ثمّ انتقاله إلى نظام رأسمالي، وموت والدتي، وتصدع الشقة التي نعيش فيها، وعدم قدرتنا على اقتناء ثلاجة حديثة، وتلفزيون وغسالة ونشافة ومكنسة كهربائية، وسيارة جديدة، وكذلك الطعام والشراب واللباس، والفراش الحديث الذي يركض الرأسماليون لتحقيقه. قعد والدي أسير التحولات العقائدية، والتقلبات السياسية والاجتماعية التي طحنت بقاياه، ولم يعد الآن قادراً على كسب قوت يومنا، واستمرار حياته، إنه يجلس وينام كثيراً وهو يفكر ويقول:

"لا أعرف المبدأ الذي عليه سأموت."

كانت حياته مجرد اندفاعات باتجاهات متعاكسة، لا يدري لماذا وكيف حصلت! هذا هو والدي الذي لم يرحب بك، وإنما اكتفى بمشاهدتك، والتعرف على ملامحك، تماماً كما تعرف على ملامح الأنظمة الهتلرية والشيوعية والرأسمالية معاً، ولا أظنك ستكون أهم من هذه الأنظمة في حياته، إنما أنت يا فارس حياتي، وتشكل بالنسبة لي الشيء الكثير. أنت تشكل الحاضر والمستقبل الذي من أجله سنعيش معاً أنا وأنت، ومن سننجب مستقبلاً."

وبعد حديثها المحزن، ضمتني كاتي، فضممتها بحنان دافىء، لم أتذوقه من قبل. كنت أحضنها ودموعي تنساب على لحم كتفيها، ولما أحست بدموعي الساخنة، اندهشت وقالت:

"ما بك يا فارس؟" فقلت لها :

"إن تاريخ والدك الألماني يا كاتي، يشبه تاريخ والدي العربي تماماً، فوالدي عاش بداية عمره وطفولته، يركض فرحاً وراء خيول العرب، المطاردة لفلول عساكر الدولة العثمانية، الممتدة على جسد الوطن العربي، بهدف الاستقلال، وتوحيد أمة العرب، بالتحالف مع الإنجليز، وما أن انهار الحكم التركي، حتى وجدوا أن حلفاءهم الإنجليز قد انقلبوا إلى أعداء، واحتلوا البلاد تحت اسم التعمير والاستعمار، وهكذا دخلت جيوش الإنجليز بلادنا، وداست دباباتهم صدورنا، فجلس والدي ورفاقه

الشباب مصدومين بما حدث آنذاك، وقرَروا أن يحولوا بنادقهم إلى الإنجليز، رفاق الأمس.

واستمر الصراع ضد الإنجليز، أملاً بالاستقلال، ولم يخرج المعتدون، إلا بعد أن زرعوا جسماً غريباً في فلسطين، كما تزرع البلهارسيا بيضها في أجساد أطفال نهر النيل.. تلك البويضات التي بدأت تنمو وتترعرع، لنشاهد بدل استقلال فلسطين، استقلالاً آخر تحت اسم إسرائيل! فهو لم يستطع أن يتحمل صدمات التحول من الصراع ضد الأتراك، إلى الصراع ضد الإنجليز حلفاء الأمس، فالتحول للصراع ضد الصهاينة، فالتحول لاستيعاب تحالف الحكومات العربية مع الصهاينة، لتحقيق هزائم لا نعرف ماهيتها ومداها .

وهكذا قعد أبي على الأرض، وهو يرى أن حظه العاثر، يضربه إلى الأمام، فيتجه إلى الخلف، ولكنه لم يفقد الأمل، بل أرسلني إلى ألمانيا لأتعلم، وأواصل المسيرة ."

نفقات منزلية !

حملت جسدي فوق ساقيّ المتعبتين، وخرجت من بيتي وأزقة حارتي، ومن شوارعها المحفرة، ومشاريع عماراتها الناهضة، وحفرياتها وأخشاب وطوب وإسمنت وحجارة البنائين. شاهدت قطة تزدرد فأراً مقتولاً بجوار حاوية النفايات. كان جسدي وعقلي يؤلمانني، ولكن خروجي من شقتي، وسيري في الهواء الطلق، قد يكونا عاملين مساعدين، في إعادة التوازن إلى شخصيتي التي أصبحت متهاوية. كان الجو بارداً، والشوارع متسخة، منقوعة بمياه المطر. مرّت سيارة مسرعة، فرشقتني عجلاتها بدفقة من المياه السوداء المطينة. لم أفكر بكل هذه الغمامات السوداء المحيطة بي، بل كان تفكيري يدور في محيط واحد، هو زوجتي وأولادي. كنت كالموس الذي يُجلّخ على سير محيط مجلّخ الأمواس والسكاكين، الذي كان يدور في الحارات والشوارع، حاملاً على ظهره جهاز جلخ السكاكين، ويصيح بأعلى صوته : "مجلخ سكاكين وأمواس. مُجلييييخ !" كان يجلخ الأمواس والسكاكين على عجلته الدائرية، لتصير حادة القطع. وها أنا أدور بين يدي زوجتي وأبنائي وبناتي! إنهم يجلخونني، لأكون حاد القطع، فحلاً في السوق، معطاءً في النقود، هكذا قالت لي زوجتي:

" نريد نقوداً يا جمال ! هذا المصرف الذي تدفعه لنا يا جمال، لا يسمن ولا يغني من جوع. مئتا دينار لا تغطي شيئاً، كمصرف شهري، ولا تشتري عدساً، ولا برغلاً هذا اليوم!" أجبتها متضائلاً :

" ولكن هذا هو الموجود! هذا هو كل راتبي، أفضل راتب حصلت عليه في عمان، بعد ترك العمل مع اليونيسيف في حلب. وأنت تعرفين أنني أثناء عملي في اليونيسيف، كنت أزورك أخر كل شهر، ومعي أكثر من ألف دينار، وهدايا حلبية، وحلويات ومجوهرات شامية، وكنت يومها تقولين :

- نحن لا نريد الهدايا ولا النقود. نحن نريد أن نراك أنت فحسب . نريد أن نعيش معك. لعنت النقود ألف لعنة!

وكان أولادي حسن ومحمود وخديجة وياسمين وفرح ومحاسن وإخلاص يتحلقون حولي، وهم يقيسون ملابسهم التي أحضرها لهم من حلب والشام، ويشلحون ويلبسون، وهم يتضاحكون ويتقاتلون ويقولون :

- اشتقنا لك يا أبي.

- نحن نحبك يا أبي.
- لا نريدك أن تسافر يا أبي.
- هل معك هدايا أخرى يا أبي؟ ويقول ابني الأكبر حسن :
- أنا مدين لأصدقائي، بأكثر من خمسين ديناراً، وأريد سدادها يا أبي. فأسأله :
- أين صرفت هذه الخمسين ديناراً يا حسن؟ فتقول أم المؤمنين :
- أولادي يا أبو حسن! أنت تعرف هذا الجيل ومصاريفه. ليس مثل جيلنا يا حسرة. كان أبي لا يعطينا في اليوم أكثر من عشرة قروش.

وأنا أعرف أن بنت الكلب كاذبة، وإنها لم تكن تحصل على مصروف من أبيها يزيد على قرش واحد، وهذا المصروف ليس في كل يوم، بل كان يصادف، في اليوم الذي ترى فيه منى والدها، وفي معظم الأيام، لم تكن ترى والدها، لا في الصباح ولا في المساء، ذلك لأن والدها الحداد كان يسري من الخامسة صباحاً إلى كوره الناري، ولا يعود إلا بعد صلاة العشاء، ومناكفة (الأعدقاء) .وتقول لي ابنتي خديجة:

- أريد أن أشتري هدية لعيد ميلاد صديقتي، هدية بحوالي عشرين ديناراً، وثلاثين ديناراً أخرى مصروفي الشخصي خلال الشهر. المجموع خمسون ديناراً؟ فتقول لها أمها :
- أنت يا خديجة تكبرين، وتكبر مشاكلك معك. الله يخلي لك أبوك، ويظل يدفع! أعطيها يا ابو حسن. قرقعتنا خديجة بطلباتها! ويقول لي محمود :
- أريد كمبيوتراً. وتقول ياسمين :
- أريد بيانو على الكهرباء، وتقول فرح :
- أريد دراجة هوائية، مثل دراجة ابنة جيراننا أنيس.

وتصرخ محاسن : وأنا ليس عندي ألعاب، أريد أن اشتري لعبة (باربي) . فتقول الأم :

- هل تعرفين يا ملعونة كم يبلغ سعر لعبة باربي وأدواتها؟ إنه يزيد على خمسين ديناراً! كان الله في عون أبيكم ، كم سيدفع ! ادفع يا أحلى أب في الدنيا، ادفع ! فأدفع وأدفع، وأستمر في الدفع، حتى تنتهي إجازتي الشهرية، البالغة أربعة أيام . وأعود إلى حلب، وأعمل هناك مع زملائي، في منظمة اليونيسيف الدولية. ورغم جماليات حلب، وأهل حلب، وحدائق حلب، وقلعة حلب، وأسواق حلب، وجمال نساء حلب، وأخلاق رجال حلب، إلا أنني هناك لم أتابع غير عملي المتواصل في الخدمة العامة، والقراءة ومشاهدة التلفاز والنوم. ونادراً ما كنت أخرج من قمقمي لأزور حلب الشهباء، أو أسواقها العربية الجميلة، لأشاهد عيد الورد، حيث يباع الورد في الربيع،

العيش في حلب بحد ذاته متعة، ينقصها اصطحاب الزوجة والأولاد، فأنا هنا طائر غريب، ليس له رفاق، يطير من رصيف إلى رصيف، يلوثه دخان عوادم السيارات في الصيف، وأمطار الشوارع المتناثرة على المارة في الشتاء، ولكنني رغم ذلك، كنت في كل زيارة، أنتقل من سوق العطارين، إلى سوق النحاسيين، إلى المتحف المدهش، إلى وظيفة تتراكم فيها الملفات، وتتعقد فيها الاتصالات. فما أن تأتي نهاية الشهر، حتى أكاد أختنق شوقاً لأولادي وبناتي وأم الأولاد طبعاً! فأجمع لهم الهدايا، وراتب نهاية الشهر، وأعود سريعاً!

يبدو أنني كبرت! لم أعد أطيق السفر والغياب الطويل عن زوجتي وأولادي. وبصراحة هذه ليس حياة سعيدة ! حياة سفر في سفر! كانت أعصابي تدفع سيارة الأجرة التي تنقلني من حلب إلى دمشق ثم عمان دفعاً، وأنا أتذكر أقوالهم :

" اشتقنالك يا أبي."

" نريدك أن تعيش معنا يا أبي."

" الحياة دونك معتمة يا جمال يا حبيبي يا زوجي الغالي! إن جلستك وسط أولادك وبناتك، وبالتحديد في حضني، تساوي الدنيا وما فيها!"

" لاتتأخر علينا كثيراً يا أبي."

أعود مسرعاً ودموعي تسيل على شواربي، وتتساقط على ذقني فأمسحها، وأتحمل آلام انتظار السفر، حتى أصل إليهم، فأحتضنهم وكأنني أمسك كرة الألعاب الأولمبية بيدي هاتين على باب شبك مرمى الملعب، وسط جماهير تهدر معجبة! هكذا كان أولاد الكلب يستقبلونني، وكانت بنت الشر.. تقول لي في الليل، وهي تنام إلى جواري :

" أنت فعلاً تعرف كيف تسدد الكرة في وسط المرمى يا جمال!" فأضحك وتضحك، وننام على حب ووئام . وهذا ما قلب طاقيتي، وغيّر تفكيري. قلت: إن النقود ليست كل شيء، وإنني قد حصلت من عملي مع منظمة اليونسيف على إيراد كاف، جعلني أشتري شقة جميلة في غرب عمان، وأفرشها، وأحقق استقراراً لأفراد عائلتي، فلماذا لا أكمل الفرحة، وذلك

بترك عملي في حلب، والعيش معهم في هذا البيت الجميل؟ وإذا عملت في الأردن، فأي راتب أحصل عليه سيكفي لمواصلة حياتنا، خاصة وإن لي مكافأة في نهاية الخدمة، سأحتفظ بها للمساعدة في تدريس أولادي في المعاهد والجامعات، وقد تنفع حين عجزنا أنا وسعاد. هذا ما فكرت به ونفذته، بعد ما قلّبت الفكرة داخل رأسي عدة مرات، وهكذا قدمت استقالتي وأنهيت عملي في اليونسيف ، وعدت إلى عمان لأعيش معهم، وبحثت عن عمل فكان أفضل عمل عرض علي براتب مئتي دينار. قلت لنفسي :

" على الأقل أكسب رضى أولادي وزوجتي، ونعيش في سعادة غامرة." وما هي إلا أيام معدودات، حتى انقلبت منى إلى نمرة متوحشة، فعندما شعرت أن النقود قد شحت بين يديها، لم تخجل أن تقول لي :

" نريد نقوداً يا جمال!" فقلت لها بكل وضوح:

"هذا راتبي خذيه كله، ولا تبقي معي شيئاً!"

"مئتا دينار لا تنفعنا كمصروف شهري، (انقعها، واشرب ميِّتها!) نحن بصراحة يا جمال تعودنا على المصروف، ولا نستطيع أن نرجع إلى الوراء! أنا صرت معروفة في كل الحي بأن زوجي جمال الدبغي، يعمل في اليونسيف في الأمم المتحدة، وأننا نقبض بالدولار، فلا أستطيع أن أرجع وأصرف مثل صديقاتي اللواتي أصبحت أنا سيدتهن جميعاً، فإذا جلست معهن، وضعنني في صدر المكان، والكلمة لي أولاً، والاحترام لي أولاً، والمفروض مقابل هذا الاحترام، أن أدفع وأن أهدي وأصرف، تماماً كسيدات المجتمع الراقي! نحن يا جمال لم نعد نحتمل شظف العيش، الذي كنا نستطيع احتماله أيام زمان، لم نعد نستطيع تحمل التدفئة بمدفأة الكاز، أو الغاز، بعد أن تعودنا على التدفئة المركزية. والآن تأتي سيارة السولار، فتصب سولاراً بخمسمئة دينار للتدفئة، مطلوب دفعها، دفعة واحدة، فإذا صرفت للتدفئة خمسمئة ديناراً يا حبيبي، فماذا سنصرف بعد ذلك ؟! يا جمال إصح لنفسك، واعرف أن البيت يريد مصروفاً."

" أنا يا منى ، لم أترك عملي في حلب، إلا تحت إلحاحك، وأقوالك: "العيش معك يا جمال أحلى من نقود الدنيا !"

" نحن نريدك أنت يا جمال!"

" أنت أهم من النقود يا جمال . لعنة الله على النقود يا جمال!" فخفضت نبرة صوتها ، ثم انفجرت في مرة واحدة ..هكذا كموج البحر المنخفض المرتفع المتكسر على صخور الشاطىء ، قائلة:

" أنا احب أن أعيش معك يا حبيبي، ولكنني تعودت على مصاريف عالية، فإذا اختفى المصروف، فنحن لا نريدك! عد إلى حلب!"

" أعـود إلـى حلـب! تطردينني مـن البيـت يـا مُنـاي! وعنـدما سمع حسن صراخنا، تدخل لحـل المـشكلة وقـال سـاخراً بكـل وقاحة :

"اذهب يا أبي إلى أمريكا. فهناك نقود أكثر!" وقالت خديجة :

" يا أبي النقود للإنسان كوقود الـسيارة، فالـسيارة لا تتحـرك بغير وقود، والإنسان لا يتحرك بغير نقود!"

كلهم أولاد الكلب يتحلقون حولي، ويقرأون على شيخ واحـد ! ولكنني أنهيت عملي مع اليونـسيف، بعـد أن ضـللوني بـأنهم يحبونني، وبأنهم يفضلون العيش معي، على الهدايا والمـصروف الـذي أحققـه لـــهم مـن راتـب المنظمـة الدوليـة. وبنـاء علـى أحاسيسي الغبية، طلبت من اليونسيف أن ينقلوني إلى بلدي في عمان، فرفضوا بحجة أن شاغر الوظيفة لي فقط في حلـب، حسب تخصصي، فقلت لـهم :

"إذن سأستقيل، وسأعمل أي عمل بديل في عمان، يحقـق لي ولأسرتي حد الكفاف" فوافقوا على استقالتي. ولكنني هنا في عمان لم أسـتطع أن أحـصل علـى راتـب أعلـى مـن مئتـي دينار، ولكن زوجتي وأولادي لم يعجبهم الوضـع الجديـد، إنهـم لا يفهمون غير القرش، أصبح القرش الضخم المستدير، يقف عازلاً بينـــي وبيـــنهم، والآن وبعـــد أن نـــدرت القـــروش بـــين أيـــديهم، اســتنفروا وتظـاهروا ضـدي، وطـالبوني بالمـصروف، ولكـن هـذه المرة بقسوة وبسخرية لاذعة!

وهكـــذا أخـــذوا يتحلقـــون حـــولي ويلـــسعونني بألـــسنتهم السليطة.. ألسنتهم تدور حولي، وأنا كالدجاجـة التـي يـضعونها على ماكنة نتف الريش، ألسنتهم كأصابع نتـف ريـش الـدواجن، وهم يتحلقون حولي ويدورون، كمـا تـدور نتافـة ريـش الـدواجن، وأنا ينتف ريشي.

انتبهت إلى أنني لست مقطوع الرقبـة كالـدجاج المـسلوخ، تحسست رقبتي، فوجدتها ماتزال غير مذبوحة، صرخت بـأعلى صـوتي مـن شـــدة الألـم! فالدجاجـة تُـذبح ثـم تـسلخ، وأنـتم تسلخونني قبل الذبح. كنـت أصيح: "اذبحـوني! اذبحـوني! ثـمّ بعد ذلك اسلخوني! اذبحونيييييييييي!"

انتبهت، فإذا بعدد من الناس يتجمعون حولي فـي الـشارع ، محاولين التعرف على قضيتي، أو مساعدتي، ولكننـي لـم أكـن قادراً على أن أشرح موقفي، فصمتُّ، وطمأنتهم بأنني ...

وبعدها صمتُّ، وتابعت مسيري .

اللهم لا تدخلنا في التجربة !

في يوم زفافي على إبراهيم، كان الحضور منهمكين بقضية الزفاف، وكنت أنا الوحيدة الشاردة الذهن، أفكر بالقصة التي حدثتني إياها أمي، قالت إن والداً حذر ابنه يوم زواجه قائلاً:" أحذرك ياولدي أن تضرب زوجتك، وإذا اضطررت لذلك فليس قبل أن تكتفها بيديها الاثنتين."

وفعلاً نفذ الابن الوصية، فعندما اختلف مع زوجته، قام وكتفها، رابطاً يديها بحبل مشدود على جسدها، ثمَّ ضربها ضرباً مبرحاً، بهدف الطاعة، وعدم عصيان أوامره، وبعد الضرب فك وثاقها، فهربت وطلبت الطلاق، فطلقت، وعزت الزوجة على زوجها، فعزى سبب الطلاق إلى أبيه الذي نصحه، حسب خبراته، أن لا يضرب زوجته إلا إذا .. فلما سمع الأب بمقولة ابنه، قال له:

" يا ولدي، أنا حذرتك من الضرب أولاً، ومن ثمَّ قلت لك: (إذا اضطررت لضربها، كتفها، والتكتيف ليس بربط اليدين بحبل، وإنما المقصود به أن تعيق يديها عن الحركة، بعد أن تنجب لك طفلين، فالطفلان هما اللذان يمسكان يديها، فيعيقانها عن الحركة، وبعد ذلك إذا واجهت الزوجة ظلماً أو ضرباً، فقد تصبر وتتحمل، لأن أولادها يربطونها، ويمنعونها من ترك بيت الزوجية، والهروب منه إلى بيت أهلها، وذلك برابطة الأمومة والأسرة .)"

هذه القصة تركت في نفسي صدمة لا تنسى، وهولاً من علاقة الزواج، لا أستطيع التخلص منه، ورغم حبي لإبراهيم، أو على الأقل، شعوري بأنني موافقة على الزواج منه، إلا أنني أخشى من الطلاق، وأشعر أن المحطة الثانية لقطار الزواج، هي محطة الطلاق! كنت أفهم أو هكذا أفهموني: "إن حياة البنت تنتهي بخروجها من بيت أهلها"

وأما أنا فلم أشعر بالسعادة التي يتحدثون عنها ولو يوماً واحداً، فبالرغم من حب والدي لي، فأنا لم أحبه أبداً، وكلما أشاهده أو أتذكره، أتذكر نفس الصورة، نفس الموقف، يوم أصدر قراره الرهيب بطلاق أمي هاجر، كان قراره أمام عيني، أشبه بانهيارات البيوت، وحرائقها المرتبطة باندفاع سيارات الدفاع المدني، التي تطلق صفارات إنذارها، ومن ثمَّ تحركات العالم المحيط بالكارثة .

ألبستني النسوة فستان الزفاف الأبيض، وأخذت أختي الكبيرة خديجة تمشط شعري، وقالت أخت عريسي إبراهيم :" لماذا التمشيط؟ نريدها أن تذهب إلى صالون التجميل، وهناك نقوم بتصفيف شعرها وتجميلها."

كنت أفكر بتلك الأحداث، وكأنها حدثت أمس، صرخ والدي في وجه أمي هاجر، قائلاً لها:"أنت طالق!"

كنت أصغر بنات أمي، لم يزد عمري يومها على أربع سنوات ، ولكنني كنت أفهم ما يتحطم حولي، ويومها جمعت أمي صرة

جمعت أخت إبراهيم ملابسي في حقيبة كبيرة، حملها أخو العريس إلى السيارة التي ستقلنا إلى بيت الزوجية. كنت منبهرة مندهشة، بتصور الأحداث التي تحصل. سواء التي حصلت وأنا ابنة أربع سنوات، أو الأحداث التي تحصل الآن، وأنا ابنة العشرين عاماً. إنهم اليوم يمسكونني من ذراعي ويخرجونني من بيتنا، وأنا ألبس ثوب الفرح الأبيض، وحولي أصوات وأهازيج كثيرة. في ذلك اليوم اللعين كنت أيضاً ألبس ثوباً أبيض صغيراً، وأمي تمسكني من ذراعي، وتخرج بي من بيتنا. كان خروجي مع أمي من بيتنا، يشبه قرار إرسالنا إلى جهنم يوم القيامة! لم أكن أعرف هل سأرى إخواني وأخواتي مرة أخرى، أم إنها النهاية! كانت أمي تشدني من يدي، وأنا أسير معها، ولكن وجهي كان باتجاه بيتنا، وإخواني وأخواتي يقفون عند الباب، ويرتمون على حديد الشبابيك، وأجزاء من أجسادهم تكاد تخرج من حديد الشبابيك! يحاولون أن يرموا أنفسهم خلفنا، أن يتبعونا إلى جهنم الحمراء! ولكن أمي كانت قد أفهمتهم أن مغادرة البيت لن تنفعهم، فقد لا يجدون في خروجهم معنا لباساً، أو طعاماً، أو حتى مأوى ينامون فيه... قالت لهم يومها : "إن بيت خالكم لا يتسع لعائلة كاملة." ولهذا فهموا القضية، ولم يبرحوا البيت. وبالرغم من كون أمي تمسكني من يدي، وهي خارجة من البيت، إلا أنني وقعت على الأرض، لأن عيني كانتا معلقتين بحديد شبابيك بيتنا الثلاثة، حيث يتكدس إخوتي!

انتبهت في لحظات زفافي ـ وأنا خارجة من بيتنا ـ أنني قد وقعت، وأن الضجيج من حولي يزداد، والأيدي ترفعني، وهم يزغردون، ويحاولون محو آثار الواقعة، ويقولون لي: "اسم الله عليك! ما بك؟ إصحي! هل أنت دائخة؟" وقال لي عريسي إبراهيم مداعباً:" نحن هنا يا إيمان! يبدو أنك قد وقعت في الحب! ولم تقعي على الأرض!"

اعتذرت ونفضت فستاني الأبيض، وازدادت حولي الحركة والزغاريد والضجيج، فمضيت مع إبراهيم باتجاه سيارة الفرح، الواقفة بانتظارنا، حيث يقف حولها حشد من الأقارب والمرافقين، والمشاركين حفل زواجنا.

حين وقعتُ طفلة على الأرض، لم تفلتني أُمي مِن يدها يومها، بل جرتني جراً على الأرض لمسافة قصيرة، ثم رفعتني وحملتني، ومسحت عن وجهي التراب الملتصق بفعل الوقوع،

وقالت :"أوسخت ثوبك الأبيض!" ثمَّ قمت ومشيت دون التفات إلى الوراء.

استقبلنا خالي بتجهم، وسلّم علينا بلا حرارة، وعيناه تنظران إلى الجبل الآخر! كان نحيل الجسم، قصير القامة، وجهه أبيض مصفر مزرق، وشعره أشيب، وعيناه صغيرتين منطفئتين، من كثرة الاستعمال، مدهونتين بسائل شفاف لزج، أقرب إلى قذى العين منه إلى الدواء، وقال لأمي : "البيت بيتك يا أختي" ولم يلتفت إليّ، أو يلاطفني. وكانت زوجته تقف خلفه، وهي تتحظه بعينين قويتين، فوقهما حاجبان غليظان، شاهدتهما شاربي حارس شرس! كان رأسها بحجم القِدر، دون رقبة، متصلاً مباشرة بجسدها القصير المنتفخ، الذي يشبه برميل الفسيخ الخشبي المبطط الدائري، الذي كان يستورد قديماً.. نظرت المرأة المسترجلة إلى أمي، وقالت بلهجة مقتضبة: "أهلاً وسهلاً!" قالت تلك العبارة، ثم غادرت المكان فوراً.

في بيت خالي، كنت ألاحظ تحكم زوجته بشخصيته، وبالتالي بأمي هاجر، وبي أيضاً! وبعد عمر طويل، فهمت أن سبب سيادة زوجة خالي على زوجها، هو كون خالي لا ينجب أطفالاً، وكانت زوجته تتحمله على مضض، وتضحي بالموافقة على عدم إنجاب الأطفال، في سبيل الحياة معه! ولذلك كان هو أيضاً، يتنازل لها عن سيادته في أمور كثيرة في البيت، وهي بالمقابل كثيراً ما تضطهده، وتعنّفه أمامنا، ثم تنظر بعد ذلك إلى أمي بحاجبيها الغليظتين، ثمّ إليّ شخصياً، لتُعرّفنا موقعها من الإعراب، فننكمش ونتلبّد، تماماً ككومة القطن، التي ترش عليها ماءً، أو ملحاً، أو حتى خراءً!

كانت أمي تنكمش، ويزرق وجهها، وتصمت وهي تنظر إلى ضَعف أخيها، وإلى اندفاع زوجته، نظرة الخائفة الحاقدة الضعيفة، وأنا أنظر إلى أمي، فأكرر نفس نظراتها إلى خالي وزوجته. ومنذ ذلك الوقت، كرهت جبروت زوجة خالي، وخفت من ضعف أمي. كانت زوجة خالي تعطيني وقت الغداء قطعة خبز، وليس رغيفاً كاملاً، فآكلها بسرعة، ثمّ أطلب قطعة أخرى، فتقول لي :"ألا تشبعين أنت أيضاً؟ نحن لم ننجب أطفالاً كي نرتاح! أصبحت مطلوبة منا تربية أطفال العالم!"

كانت أمي ترى وتسمع وتعيش هذه الأحداث يومياً، ولم تعد تطيق صبراً، فعذاب الزواج، أرحم من عذاب زوجة الأخ، ولهذا السبب ذهبت أمي إلى الشريف التقي، شيخ الجامع المجاور لبيتنا، وطلبت منه أن يعيدها إلى أبي، ولا أعرف كيف تم ذلك! المهم أننا عدنا إلى بيتنا، فلم يستقبلنا أحد. شاهدت أبي يجلس في غرفة نومه مع امرأة أخرى. اعتقدت أنها ضيفة، أو قريبة لنا، أو زائرة، وأنها ستغادر بيتنا بعد وقت قصير، وستعود المياه إلى مجاريها. ولكنها لم تغادر. وعندما استفسرت من أمي أجابتني : "إنها زوجته الجديدة." تعايشنا معها، وإذ بها هي التي تمسك زمام الأمور، وتطبخ وتنفخ، وتطلب من أبي

كنا أنا وأخوتي نسمع ونعي كل شيء، ولكن لا حول لنا ولا قوة للمعارضة، خاصة وأن أمي التي عادت مكسورة الجناح في بيت أخيها، لا تريد أن تحدث مشكلات، كي تعيش بين أطفالها. وكنا نقلد أمنا في الصمت والحقد! وهكذا عشنا حتى توفيت أمي قهراً وحزناً على عيشتها المرّة. كانت المرارة تتجمع وتثبت في حلقها، وتكاثفت حتى سدت حلقها، فتوفيت وهي في الأربعينات من عمرها. وضعوها في نعش خشبي، وكان عليها ثوب أبيض مطرز بألوان فلكلور رام الله . وتجمهر أمام بيتنا عدد من الرجال والنساء، خرجوا بها وهم يحدِثون أصواتاً متباينة، وحركات متجهمة. وهذه المرّة، خرج والدي مع النعش، وكان يمسكه بيده .

كان عريسي إبراهيم يمسك بيدي، خوف أن أقع مرّة أخرى أمام بيتنا، وكانت الزغاريد والأصوات الكثيرة، وأهازيج العرس تسيطر على الموقف، وانتقلت بنا السيارة إلى بيت أهل إبراهيم. حيث كانت أم إبراهيم عند الباب ترش الملح علينا .

كنت أسمع جارتنا المسيحية أم اسكندر تقول:"اللهم لا تدخلنا في التجربة." فأسألها:" ما معنى هذه العبارة يا خالتي؟" فتقول أم اسكندر:

" إننا نتمنى من الله أن لا نقع في مشكلة، نكون فيها عبرة لمن يعتبر، بل نتعلم ونعتبر من تجارب الآخرين، دون التورط في المعاناة والعذاب، ودون أن نجرب بأنفسنا مر العذاب!" وهكذا تعلمت من خالتي أم اسكندر أن أطلب من الله ؛ أن لا يدخلنا في التجربة. كنت دائماً أشاهد الطلاق وحشاً ضخماً يقف في بابي! كانت صورة أبي- كثير الطلقات- لا تفارق عيني. كان الطلاق ناقوساً مدوياً يطرق أذناي، فيحطم قنوات سمعي، ويدمر أعصابي طوال الوقت.

في ليلة زفافنا، سهرنا حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وقبلها لم أنم منذ ثلاث ليال، كنت أودع فيها إخوتي وأخواتي، وأستحلفهم بالله أن يزورونني دائماً، وأن لا يتركوني بين يدي زوجة عمي أم إبراهيم. أسبلت جفوني فغططت في نوم عميق، وما أن استرخيت في ليلة فرحي الأولى، حتى بدأت أحلم.. حلمت في أول ليلة نمناها في بيت خالي..

أعطتنا زوجة خالي فرشة محشوة بشرائط القماش المطحون على شكل قطن متلبد، ولحافاً قديماً ثقيلاً. نمت وأمي على تلك الفرشة، وتغطينا باللحاف الثقيل، كان طول الليل يكتم نفسي. ولم يكن اللحاف هو المشكلة الوحيدة، بل كانت الفرشة غير مستوية، حيث تتوسط كتلة صلبة من الشرائط، القماش المتلبد والمتكور في وسط الفرشة، كنت أنام قليلاً، ثم أصحو كثيراً، لأستريح من تعب النوم، فتغمرني أمي باللحاف، وتقول لي:" نامي! نامي! طلع الصباح!"

وفي منتصف هذا الحلم صحوت، هذه المرّة، لم يكن الفراش متماوجاً، وكان صوت إبراهيم يصحيني:"إيمان.إيمان!" جفلت ملخومة وأنا أجيب:" نعم ! نعم! هل حصل شيء؟" فقال:"لا لم يحصل شيء، قومي اصنعي لنا فنجان قهوة." استغربت الأمر :" الآن؟ نحن لم نستغرق بعد في النوم !" فقال بإصرار آمر:"هذا لا يهم، قومي اصنعي لي فنجان قهوة." نظرت إلى الساعة. كانت الرابعة بعد منتصف الليل. فقلت له : "وهل هذا وقت صناعة قهوة؟" فأمرني قائلاً:

" لا داعي للحوار، قومي ولا تناقشي في مثل هذه الأمور!" قلت بصوت الخائفة الطائعة :

" حاضر!" قمت متجهة إلى المطبخ، وأخذت أستحضر قواي المطبخية، فحضرت له فنجان قهوة، وقدمته قائلة:

" تفضل ." تناول الفنجان وبدأ يتذوقه، ثمَّ قال مستمزجاً :" أللّه ! قهوة طيبة يا إيمان، تسلم يديك!" قلت له وقد شعرت أنه مرتاح لقهوتي: "ولكن لماذا صحيتني من نومي في هذا الوقت الذي يبسق أذان الفجر، ولم نستغرق في نومنا بعد؟" فأجاب بصوت الزوج الشرقي، نفس الصوت الذي تعودت أن أسمعه من أبي :

" يجب أن تتعود الزوجة على تلبية طلبات الزوج، وإلا فكيف سيسير الكون؟" قلت في نفسي :

" الكون هو الكون، لم ، ولن يتغير. وتذكرت قصة الزوج الذي كتّف زوجته ثمَّ ضربها. وشعرت أن اللعبة قد بدأت، وأن الصراع الزوجي يبدأ من أول ليلة زواج . وكثيراً ما سألت نفسي :

" لماذا يرتبط العيش بالصراع؟ وكأنهما خطا سكة حديد، يمر فوقهما قطار الزواج؟ هذا الصراع الذي يخلق الحياة، ثمَّ يدمرها في آن واحد." وكثيراً ما تخيلت أنني سأنجب طفلة أسميها على اسم أمي هاجر، وأنني سأرعى الصغيرة هاجر برموش عيني، وسأسعد معها، وأسعدها بكل الوسائل، ولكنني سأكون مصدومة مرعوبة، فيما إذا طلقني إبراهيم، وطردني من بيتي، فأمسكت هاجر من يدها، وجررتها معي على الطريق، ملتجئة إلى بيت الأقي فيه لقمة العيش.

إن الطلقة المرعبة التي أطلقها والدي على أمي هاجر، وأنا طفلة صغيرة، كانت كجثة سقطت في بحيرة ساكنة، فأحدثت دوائر دوائر دوائر دوائر دوائر.. فالرعب الذي أصاب أمي، وحملته

وهكذا ينتقل العذاب مع الجينات، ليورث إلى الأحفاد!
وكثيراً ما أشعر بالخوف مـن هـذا الـصراع الزوجـي، فأعيـد مـا سـمعته من جارتنا أم اسـكندر :
"اللهم لا تدخلنا في التجربة."

تطبيع!

منذ ساعة فتح الحدود الأردنية الإسرائيليَة، قام الحاج أحمد الحمدان، وحمل جسده المثقل بالسنوات العجاف، وحصل على تأشيرة دخول إلى حيفا . وطوال الطريق من المخيم الذي يعيش فيه، إلى قرية طيرة حيفا، وهو يعيش حالةً من الهلوسة. كأن(بالعربي) مسطولاً من هول الدخول في اللامعقول. كان مخه المهلهل يشتغل بطريقة استفسار لم يسبق لها مثيل.

وعندما أخذت السيارة تغرق في مرج ابن عامر، وتختفي مروراً من وادي الملح، إلى وسط غابات جبال الكرمل، مروراً بقرية أم الزينات المهدومة، ثم بقرية دالية الكرمل البهيجة، وقرية عسفيا التي من علاها ترى الدنيا ومافيها؛ من سهل عكا إلى رأس الناقورة، ومن حيفا ترى بحرها الممتد إلى جبل طارق المغرب، ومن الشرق مرج بن عامر الممتد إلى بحيرة طبريا.. وأمام هذه الدنيا الملونة بالغابات الخضراء، والمياه الزرقاء، كان أشبه برجل آلي، وعيناه عدستا كاميرا تصوير فيديو. كان يطابق الصورة التي يراها بالأصل المختزن في ذاكرته قبل ثماني وأربعين سنة. هذه أرضنا في قمة جبل الكرمل، قد زرعوا فوقها استحكامات عسكرية!

كان التصوير ضبابياً لأن دموعه المنهمرة من عينيه، قد بللت شواربه، وانسابت على ذقنه. الرجال في هذه المواقع تبكي كالنساء. ما يزال القوشان في جيبي! قالوا لنا : "ابتعدوا عن مواقع المعارك لمدة أسبوع أو أكثر، كي نستطيع أن نتصرف مع اليهود، فابتعدنا كي يتصرفوا، فلم يتصرفوا بهم ، بل تصرفوا بنا، فانصرفنا، فإذ بكل واحد منا ممنوع من الصرف! وإذا بنا خارج الكون! لم نعد إلا بعد ثماني وأربعين سنة، بتأشيرة سياحية! كنا حراثين في أراضينا، واليوم نعود إليها سائحين! ما أحلى السياحة في ربوعك يا بلادي !

كانت مساحات عينيه السريعة، غير قادرة على إزالة دموعه المتدفقة، بهدف تحسين الصورة. صورة غابات الكرمل، حيث تتمدد أراضيه خانعة معتقلة! ومن هناك نزلت السيارة باتجاه حيفا، مثل زلاجة الأطفال، نزلت إلى الهدار، حيث حيفا تركب جسد البحر المتوسط.. وأخذت السيارة تنزل شيئاً فشيئاً إلى معبد عباس، ثم إلى حارات حيفا.. وهناك قال للسائق: "أرجوك أن تسير في الشوارع الرئيسة لحيفا ؛ يميناً وشمالاً، لبعض الوقت، أريد أن أشاهد بلدي؛ حاراتها وشوارعها، ورائحة البحر المتدفقة من بين البيوت القديمة." فمرَّ السائق من الحليصة إلى شارع الملوك، إلى ساحة الحناطير، إلى وادي النسناس، حتى وصل إلى حواسة شرقاً، وكانت في المدى القريب تقبع قرية شفا عمر وطمرة، وبعدها الناصرة على المدى البعيد، ثم عاد السائق باتجاه البحر، فشاهد الميناء الذي كان اسمه

هنا كنا ندرس في مدرسة حيفا الثانوية، أنا وصديقي الدّرزي حاتم الحلبي. وإذا أقمت هنا في الطيرة فسوف أقضي بقية عمري معه. سنعود نتزعرن على شاطئ الميناء، وننتشر كما كنا ونحن أطفال، نجمع الزعتر من سفوح جبال الكرمل، والميرمية والزعمطوط واللسينة والنرجس . كان زهر البنفسج ربيع بلادنا.

ولما نظرت بريطانيا بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، حصل العطف، وفي المنعطف الحاد، ردموا التراب على الشعب الفلسطيني. وصعدت من تحت التراب دولة جديدة، مثل نبات الهالوك الجميل، ذي الأزهار الزرقاء بسرعة، ودون رحمة. شمراخ يانع قوي، ذو أزهار زرقاء، ولكن جذوره لا تعيش إلا متطفلة على النباتات المجاورة.

استمرت السيارة منطلقة باتجاه غرب حيفا، وعلى شاطئ البحر المتوسط، حيث بيارات الموز والبرتقال المحتمية بين شاطئ البحر من الغرب، وغابات السنديان والصنوبر من الشرق، ارتفاعاً باتجاه جبل الكرمل، الباسط نفوذه باتجاه شاطئ البحر. وهناك وعند المنحدر الذي يصل الغابات بالبحر، كانت قرية الطيرة، تجلس على الرصيف، بانتظار القادم من بعيد. هنا كنت أعيش ولكن أين هو بيتي؟ إنه هناك! قال للسائق : "أرجوك أن تتجه إلى تلك الدار ذات الطابقين، العتيقة المبنية من الحجر، وعليها القرميد الأحمر." وعند الدار نزل من السيارة، ولكنه لم يستطع الوقوف، بل ركع على الأرض، مقبلاً إياها ، ومستنشقاً رائحة ترابها . كان الجنود يراقبونه من البيت، اقترب منه مجند ومجندة يحملان أسلحة عوزي، وسأله المجند:"ماذا تريد؟" فأجابه مبهوراً:" هذا بيتي!" فقال الضابط :" كيف يكون هذا بيتك؟ هل أنت مجنون؟! هذا البيت هو إدارة الأمن في الطيرة!" فأجابه قائلاً:

"هذه الإدارة الأمنية التي تقول عنها، هي بيت أحمد الحمدان، انظر إلى الحجر الطويل، المثبت كجسر فوق الباب الرئيس للبيت، تشاهد أن اسم أحمد الحمدان، محفور عليه، وأنا المدعو أحمد الحمدان وهذه هي هويتي! انفعل الضابط ، وسأله:"من أين أنت قادم؟" فأجابه بكل بساطة:

" أنـا قـادم مـن الأردن ." تقـدم الـضابط منـه كثيـراً ، وكأنـه يدفشه إلى الوراء، وهو يقـول لـه:"ومـاذا تريـد مـن البيـت؟" لـم يتراجع بل أجاب:

"لا أريـد مـنكم شـيئاً، فقـط أنـا عائـد إلـى بيتـي ." فقـال الـضابط:"إنـصرف مـن هنـا. فلـولا احترمنـا لكونـك سـائحاً أردنيـاً لكسرنا رأسك."

"أرجـوك، تمهـل قلـيلاً. أريـد أولاً أن أرى بيتـي، وبعـدها لكـل حادث حديث." جاء مدير المركز الأمني، فسأل عـن الموضـوع، فأبلغوه ، فقال له :"يا أحمد روخ فوق، في الطابق الثاني، في ناس أصحاب بيت، مـش أمـن، ممكـن تـزروهم، إذا سـمحوا لـك بالدخول!"

صعد الحاج أحمد الحمدان إلى الطابق الثـاني، درجـة درجـة، وهو يتوكأ على الجدار بيده، ويقبله. طرق بـاب الطـابق العلـوي، ففتحت لـه امـرأة عجـوز، مـن عمـره تقريبـاً، وقالـت لـه : "مـاذا تريـد؟" فأجابهـا ببـساطة :" أنـا أحمـد الحمـدان!" فاسـتغربت قائلة:"من أحمد الحمدان أنت؟ هل أنت عربي عيني ؟" فخفـت درجــة تــوتره مجيبــاً:"هــل أنــت يهوديــة عراقيــة عينــي؟" فابتسمت:"نعم أنا يهودية عراقية، وأنت من تكون؟"

"أنـا صـاحب هـذا البيـت .أنـا الـذي بنيـت هـذه الحجـارة قبـل خمسين عامـاً، وأريـد أن أزور بيتـي." فقالـت ملهوفـة: "تفـضل، ادخل."

شعرت العجوز اليهودية بصدمة ، وعواطف لـم تتوقعهـا. كانـت تتوقعها منذ عشرات السنين، ولكن مع تقادم الزمن، نـسيت أن للبيت صاحباً سـابقاً، وأنهـا ليـست صـاحبة البيـت، بـل حـصلت عليه تقدمة من السلطات، دون سـند تـسجيل رسـمي، كعقـار أمـلاك خاصـة. دخـل أحمـد الحمـدان إلـى بيتـه، وأخـذ يـتفحص جدرانــه، وأرضــه وســماءه.وقــال لهــا وعينــاه علــى المــداخل والمخارج التي بناها بيديه:" كم أنت سـعيدة، إذ تـسكنين هـذا البيت يا ...."

"اسـمي سـارة." فأكمـل قولـه: "يـا سـارة. هـل قـدمت مـن العراق مباشرة إلى هذا البيت؟" سارت معه في غرفة الجلوس وهي تقول: "قدمنا من العراق، من شط العـرب بالبـاخرة، وفـي ميناء حيفا وضعونا في تجمع سـفري مـن الـصفيح، ثـم نقلـوني إلى قرية الطيرة، وأسكنوني في هذا البيت. قالوا : "هذا البيـت كـان يملكـه شـخص عربـي، وهـو غائـب، وهـذه أمـلاك الغائـب محجـور عليهـا، وبعـد خمـس سـنوات، أصـبح البيـت ملكـي، بالقانون العثماني ." ولكن قل لي يـا أحمـد:" هـل أنـتم قريبـون من العراق؟ وهل تزور بغداد؟ هل زرتها قريباً ؟ أنا أتمنى لو انـك أحـضرت لـي معـك هديـة ؟" فقـال مـستلطفاً صـدقها، ودفء حديثها: "ما نوع الهدية التي تتمنينها؟" فأجابته محزونة:

"قليل من تـراب الـوطن، فأنـا أعـيش هنـا علـى ذكـرى حيـاة بغـداد، كنـا نعـيش هنـاك يـا أحمـد، مثلنـا مثـل سـائر النـاس، مسلمين ومسيحيين ويهوداً، بل على العكـس، كنـا نـشعر أننـا

- اليوم تعودون إلى أرض اللبن والعسل، إلى فلسطين التي سميناها إسرائيل من أجلكم. وبالفعل جلبونا إلى أرض اللبن والعسل، فواجهنا الصراع بين الأشكناز والسفارديم، الصراع بين اليهودي العربي الشرقي واليهودي الأوروبي الغربي، ونحن في هذا الصراع نعتبر الأضعف، حيث القادمون من الغرب أكثر حضارة من الشرقيين، ولهذا فنحن دونهم، نعاني من الغربة داخل أرض اللبن والعسل، إنني أحلم بالعودة، لأقضي بقية عمري في بغداد."

"ما رأيك بأن تعودي لتعيشي في بغداد، وأعود أنا لأعيش هنا في الطيرة؟ فما دام السلام قد عم البلاد، فأنا أتوقع الحرية للناس في العودة إلى بلادهم، ليعيشوا فيها، ويتعايش المسلم مع المسيحي، مع اليهودي، كما يتعايش الشيوعيون والأخوان المسلمون، وغيرهم من أصحاب المبادىء المختلفة، ضمن ديمقراطية مطلقة. تصوري أنه عند الحدود سألني المجند :- من أي بلد أنت؟ فقلت له :- من الطيرة. فقال:

"هذه الطيرة في أي بلد ؟" قلت :"في فلسطين طبعاً " فرد بخشونة وتحدٍ :"تقصد في إسرائيل."

قلت له:" فلسطين أو إسرائيل أو (خيشة)! هذا لا يهم، المهم أنني من طيرة حيفا." فقال موظف الأمن :

-اكتب إنك من دولة إسرائيل." فقلت له محتجاً :

" ما دمت تعترف أنني من دولة إسرائيل، فلماذا تمنعني من حقي بالمواطنة في هذه الدولة؟" لم يجبني المجند.

وأما الآن يا سارة فما دمت في أرض الطيرة فأنني باق هنا." فقالت العراقية:" أنا أتمنى ذلك." البيت بيتك يا أحمد. ففرح الحاج أحمد وقال:

" إذاً دعينا ننزل إلى مدير الأمن لنعترف له برغباتنا." فقالت سعيدة برفقته :"تعال نعترف له برغباتنا."

الحافلة!

اليوم سأستلم وثائق حافلتي الصغيرة من دائرة السير. بالأمس تفحصتها جيداً؛ مقعد ومقود سائق مريح وجميل، وخلف السائق ساحة واسعة بلا مقاعد. وأنا لا أحبّ المقاعد في الحافلة، ذلك لأن المقاعد تحدد عدد الركاب، وتملأ فراغها، فإذا ركب الأطفال في حافلتي الصغيرة، فسوف يجلسون على أرضيتها المفروشة بالسجاد، وسيكون المكان واسعاً لأخذ براد ماء، وكيس من الخبز، وفواكه نشتريها من سوق الجملة، وستكون معهم كرة قدم، ومضارب وحبال شدّ، فأنا أحب لعبة الشدّ بالحبل هذه. صحيح إن فيها نوعاً من الحيوانية، فشدّ الحبل للثيران أو للخيول أو للحمير، ولكنها لعبة مضحكة، ونحن أصلاً سنذهب لنضحك، فأنا لم أضحك منذ مدة طويلة! وأما الآن، وبعد تقاعدي، فسوف أتفرغ للعب مع أولادي وأحفادي، وطبعاً البنات أولاً، واللعب مع الأطفال أولاً، ذلك لأن الأطفال يضحكون من كل قلوبهم، وببراءة تامة، وأما الكبار فقلوبهم جافة، وشراييهم متصلبة، بسبب تقادم السن، وزيادة مشاكل ومسؤوليات وهموم حياتهم، ولذلك فهم لا يضحكون.

منذ عمر طويل وأنا أحلم باقتناء حافلة من هذا النوع، واسعة لونها أصفر أو أخضر أو أحمر أو أزرق هذا لا يهم، فالأطفال يحبون الألوان. سأدور على بيوت إخوتي، بيتاً، بيتاً، وأجمع أولادهم وبناتهم، وكل صغارهم، وأجهز لهم كلّ ما يحتاجونه ؛ كانون نار لشواء اللحم، وأكثر من بساط ومخدات ومأكولات، خاصة المعجنات والفطائر والشطائر، وكذلك بذوراً محمصة للتسلية- طبعاً ممنوع القصقصة كالقرود، والتفتفة من الشبابيك، على الشارع والمارة - وزجاجات مشروبات غازية، ولو أنني لا أؤيد المشروبات الغازية، فهي ليست صحية، ولكنهم العفاريت يفضلونها على كل شيء! والشاي، سنغليه على نار الحطب في البرية، ولو أنه ممنوع إشعال النيران في الغابات وفي أماكن التنزه ، لكن سنجد لنا زاوية بعيدة عن التأثر بالحرائق، وقناة مائية جارية، يضع الأطفال أرجلهم فيها، ويلعبون ويفرحون، وهذا الطفل يقول:

"الله يسعدك عمي بهذا المشوار، وذاك يقول: يا جدي ضربني محمود." وأنا أقود حافلتي الصغيرة، وأسمعهم أشرطة أغاني شعبية ودبكة وحداية. وعلى دلعونة، وعلى دلعونا، زعتر بلادي أخضر اللونا!

وهم يدبكون ويرقصون ويتصايحون.. ستكون الحافلة عبارة عن مجتمع فولكلوري، وصغار راقصون، وشغب صبياني يصل إلى عنان السماء. وسيتفلسف كل واحد منهم متفتقاً بنكتة صغيرة، يضحك لها الجميع، حتى ولو كانت سخيفة. وسأكون

سـننطلق فـي رحلـة الحـب هـذه إلـى الغابـات، خـارج المدينــة المعقــدة، بخطوطهــا الهاتفيــة والإذاعيــة والكهربائيــة والشوارعية والتلفازية والطيرانية، والخطوط المتشابكة، التـي لا أول لــها ولا آخـر، فأنـا أتخيـل المدينـة مكتظـة بـشبكات مـن الاتـصالات والخطـوط المعقـدة، التـي يتحوصـل ويجـثم تحتهـا الإنسان، فيغدو مخنوقاً وسط تقنية حضارية لا تـرحم! ومـن هنـا ينطلق الناس خارجين من زحمة صناديق المدينـة، إلـى الريـف، إلى الغابات، إلى أرض الله الواسـعة. وأمـا رغبتـي للتعامـل مـع هؤلاء الأطفـال البـريئين، فهـي بهـدف الخـروج مـن عـالم الكبـار المرتبط بالمصالح، وكذلك لأخلـق وأوطـد علاقـة ابـن العـم بـابن عمه، وابن خاله وابنـة عمتـه وابنـة خالـه، وكـذلك أوطـد علاقـة العم والجد، مع ابن الأخ وابن الأخت، والحفيد والحفيدة، فكلهـم أولادي. هذا من جهـة، ومـن جهـة أخـرى، كـي يتـذكروني بعـد وفاتي، فمستقبل التقاعد هـو المـوت، ومـستقبل الأطفـال هـو الحياة، ففي حياتهم سيتذكرون موتي، وأكـون بـذلك قـد تركـت ذكرى طيبة مستمرة في قلوبهم.

الآن سأذهب لتسجيل الحافلة في دائرة السير، فلقد دفعـت ثمنهـا للبـائع، وهـي صـحيح مـستعملة، ولكنهـا بحالـة جيـدة، جمعت ثمنها قرشاً فوق قرش، قبل تقاعـدي، لأحقـق لنفـسي ولهم هذه الأمنية، وحدثت زوجتـي وأنـا فـرح بالـشراء، وسـردت عليهـا أهـدافي التوسـعية خـارج المدينـة، بهـذا الحـشد مـن الأطفال فقالت :

"إن مرافقة الأطفال متعة، ولكـن ألا تخـاف أن يقـع واحـد مـنهم في الطريق، كما وقع يوسف في الجب، أو لا سمح الله، يتـأذى أحــدهم بــسبب أو دون ســبب؟ وأنــت تعــرف أن الحكومــة والشرطة، أول ما تمسك إلا بخناق الـسائق! والـشرطة ورطـة، لا تهمهـا كونـك عمـاً أو أبـاً ! الـشرطة تطبـق أوراقـاً وتعليمـات. (حطّـوه فـي الـسجن إلـى أن تظهـر الحقيقـة). وأنـت يـا حـاج سليمان قضيت عمرك كله في العمل، ولم تـدخل سـجناً، فهـل أنت مستعد لتحرش السجون بك في آخـر عمـرك؟ ولـيس هـذا هو بيت القصيد، فأنت تلاحظ أن مصاريف الحياة أصبحت معقدة، وكل شـيء سعره يتقلب تحت نار الغلاء، وراتب تقاعدك لا يـسد

فواتير الكهرباء والماء والهاتف والدواء، ونحن يا حاج لا نعيش دون دواء. وكيلو الفول قد ارتفع سعره من عشرة قروش إلى دينار، والحياة أصبحت معقدة، فما دمت ترغب في الحركة، ولا تسكن إلى التقاعد، وما دمت متحركاً متحركاً، فالأفضل أن تملأ سيارتك بالمكسرات والمخللات والأدوات المنزلية، وتنتقل من دكان إلى دكان، تبيعهم ما تيسر، وتتحدث مع هذا ، وتمزح مع ذاك، وتعود إلى بيتك، ومعك ما تيسر من الدنانير، ندفع منها مصروف بيتنا، ونحن لا نعرف ما يخبئه لنا المستقبل، خاصة وأنت في هذا العمر، فإذا مازحت أبو خليل وأبو طالب وأبو جعفر، وأبو بطيخ ، ممن تتعامل معهم في السوق، فذلك أفضل من أن تضع عقلك مع عقل أطفال صغار، تدور بهم، وأنت في هذا السن، وأنت تعرف أنّ (قاضي الأطفال شنق حاله)!"

لا أخفي عليك، فكرت مليّاً بما تفوهت به زوجتي، ولا شك أن أفكارها الملعونة، كانت كمن يدس السم في الدسم! ولكن كلامها فيه منطق! لا ليس فيه منطق، ولا زفت! ولكن فيه إتجاه إجباري ، طريق واحد في الحياة، لا يمكن الرجوع فيه، ولا أستطيع أن أرفضه من موقع المسؤولية، فنحن معشر الرجال، لا نتحرك في هذه الحياة بمحض إرادتنا، بل نحن مجبرون على الحركة، و(يا أيها المدثر، قم فأنذر)، والرجل مجبور على أن يقوم حتى وهو متقاعد، مجبورعلى أن (يقوم وهو قاعد)، ويعمل حتي يموت . الآن سأذهب لتسجيل الحافلة واستلامها، ولكن صدقني إن متعة شراء الباص قد طارت من عيني، واستبدلت بمسؤوليات وهموم البيع والشراء، والديون التي لا تسدد، ولكن ما باليد حيلة، فالفول قد ارتفع سعره من عشرة قروش إلى دينار!

سبتة ومليلية !

لم أكن أتصور أن نهاية الرحلة ستكون مأساوية إلى هذه الدرجة، فالصدمة التي اجتاحتني، شككتني بشخصيتي وفي هويتي وفي انتمائي، وتركتني كالجمل واقفاً على مشارف الصحراء العربية، يجتر أحزانه.

بدأت الرحلة بمزحة هكذا : "ما رأيك برحلة إلى مدينتي سبتة ومليلية على الشاطئ المغربي؟" هذا ما قاله بيتر ، وهو شاب إنكليزي في العشرينات من العمر، التقيت به صدفة في فندق ماريا الأندلسي، حيث كنا ننزل سائحين أياماً معدودات. فأجبته على الفور: "موافق".

كنت أزور الأندلس للاطلاع على تاريخنا الحضاري العتيق، وكان يزورها للاستمتاع . فالأمس كله قضيناه منذ الصباح في مدينة غرناطة، وكان الأزعر بيتر يعيش طيلة يوم غرناطة قصة غرام مع ماريا، وهي اسكوتلندية، التقاها صدفة في الفندق السياحي، شقراء محمرة، نحيلة القوام، مكتنزة البياض المشوب بالحمرة، وسرعان ما تزهر خداها ورقبتها إذا ما قبّلها، أو داعبها معانقاً. تخيلتها ولادة بنت المستكفي مع ابن زيدون، أو أي عاشق أندلسي عاثر، وهي تتغزل بعينيه قائلة:

"كل السيوف جوارح إن جردت. وحسام لحظك جارح في غمده." بينما هو يسرح في الخيال، ويتحدث عن معشوقته :

"جاءت معللتي في غيهب الغسق كأنها الكوكب الدُرِّي في الأفق

فقلت حيرتني يا خير زائرة أما خشيت من الحراس في الطُرُق، فجاوبتني ودمع العين يسبقها من يركب البحر لا يخشى من الغرق."

كان بيتر وماريا الإنجليزيين في واد العشق والغرام، وكنت أنا العربي العاثر، أقضي وقتي معهما، متمسحاً بأعتاب السلطان أبي عبد الله الصغير، وأناديه من بعيد، وأقول له :" لماذا تناذلت، ففرطت بكل هذه الحضارة العظيمة؟ لماذا لهوت فنمت، فلم تأمن جيوش بلاط الشهداء؟ لماذا طغيت وتجبرت وكنت(فظاً غليظ القلب، فانفضوا من حولك) فدالت دولتك ؟ "لماذا تربعت على كل هذه القصور العظيمة، ما دمت غير قادر على حمايتها؟ وإذا كنت تحب قصورك هذه، فلماذا لم تخطط لحمايتها؟ أم إنك لا تعرف من الحب سوى شهوة النساء ؟"

طرقت باب السلطان كثيراً، ولكنه لم يجِبني يومها، قالوا لي إنه غير موجود، ولكن زوجته السلطانة ثريا الرومانية، والتي كانت مشغولة بالغيرة من نساء غرناطة العربيات، اللواتي كن يخرجن من بيوتهن، حاملات الجرار، وينزلن إلى نبع وادي غرناطة، فيجلبن الماء، بينما هي أميرة القصر الذي لم تر فيه جمالاً، بسبب الحصار داخل الأسوار، والحراس داخل القصر، فجعل لها أبو عبد الله الصغير نبعاً من العطر، في قاع الوادي، داخل حديقة قصر الحمراء، الواقعة على جبلين وبينهما وادي، وجعل التراب حول النبع معجوناً بسائل العطر، وطلب إليها أن تذهب هي ووصيفاتها إلى النبع، فتملأ جرتها، وتدوس على طين العطر، وهكذا فعلت، ولكنها عادت دون أن تحقق السعادة الغامرة، التي تحسد نساء غرناطة اللواتي يذهبن ويرجعن، وهن يضحكن بسعادة وبهجة غامرة، تملأ صدورهن، بلا رقيب ولا حسيب.

لم يكن السلطان قادراً على إسعاد السلطانة الرومية . ولا على إسعاد نفسه بالبذخ الذي يعيشه، فالسلطان يعرف تماماً أنه يعيش أيامه الأخيرة أمام الزحف القشتالي، وهو بداخل قلبه، حزين بائس، والسلطانة الرومية متحفزة، قلقة بانتظار قدوم القشتاليين الرائع، للانقضاض على آخر مماليك الأندلس، وسحق العرب المسلمين.

أتجول حزيناً وأنا أشاهد قاعات قصر الحمراء ، فأتخيل التاريخ العملاق للعرب الأندلسيين المسلمين، والنهاية المذلة لانقسامهم وتفتتهم إلى دويلات هزيلة، غير قادرة على الصمود أمام الأعداء الذين لا يرحمون! أتجول وأنا أرى رؤوساً قد أينعت وتم قطافها. وقالوا يومها:" كان أبو عبد الله الصغير يبكي وحيداً في زاوية بعيدة، داخل قصره." وكنت أقف متكئاً بأذني على الجدار، فأسمع شهقات عويله، فوجدت نفسي أبكي على بلاط الشهداء!

وفي صباح ذلك اليوم ركبنا الباخرة، أنا وبيتر وماريا مع فريق من السياح الغربيين، وكانت الباخرة متجهة من ميناء ماربيا الأندلسي، عبوراً إلى جوار جبل طارق، وصولاً إلى ميناء سبتة المغربي. كنت أحدث نفسي منفعلاً :

" بعد ساعتين، سنكون في المغرب، سأشاهد أرضاً عربية في هذه الغربة، إنني أعشق الأرض العربية، ولكن منطقة سبتة ومليلية ماتزال مستعمرة إسبانية. ولكن لماذا هي مستعمرة إسبانية في القرن الواحد والعشرين؟ ألا يكفي أننا سامحنا بخراب الأندلس، يقولون إنها أوروبية، قلنا بلى أوروبية! فهل نسكت على الاستعمار الإسباني للأراضي المغربية ؟ لماذا استنكروا الحضارة العربية، وقتلوها في الأندلس، وفي نفس الوقت، سيطروا على سبتة ومليلية ؟ كيف يرفضون الحضارة الأندلسية العربية، ويقبلون الاستعباد الإسباني للعرب المغاربة ؟

انتبهت إلى أنني العربي الوحيد في هذه المجموعة السياحية، وكان الآخرون أوروبيون وأمريكان. كان بيتر يعانق عشيقته ماريا على سطح السفينة، ويشاهدان طيور النورس البيضاء، ذات المناقير الحمراء، وكأنها تصبغها بأحمر الشفاه. وماريا تضع على كفيها قطعة بسكويت، فتنقض طيور النورس، وتخطف قطعة البسكويت من يدها، فيضحك بيتر وماريا، ويفرحان وهما يؤشران باتجاه مئات الطيور المهاجمة للأسماك التي قد تظهر فوق زبد البحر، والخارج من خلف السفينة. كانت الطيور للأسماك بالمرصاد، وكان بيتر وماريا يتابعان المشهد بمتعة شاعرية، كانا في بحر طيور النورس، وإنا في بحر طارق بن زياد . الضباب يوحد السماء بالبحر، ويقرب بينهما، لدرجة إنني شاهدت البحر عالياً، والسماء منخفضة، والضباب يملأ الطبقة الرقيقة، التي تصل ما بين السماء والبحر، وكأن السماء تستند على جبل طارق، كي لاتقع على البحر، وطارق بن زياد ينتقل بسفنه قادماً من المغرب العربي إلى الأندلس، وهو يرفع أشرعةً ضخمةً ترفرف على سفنه الحربية. وأعلنت وكالات الأنباء العالمية، والأطباق اللاقطة لمحطات التلفزة الفضائية، أن طارق بن زياد لم يحرق السفن لدى وصوله إلى ميناء ملقة الأندلسي، بل قال للقشتاليين الذين واجهوه على الشاطىء الشمالي:

"نحن مسلمون" فقال القشتاليون:

" وما معنى مسلمين؟" فقال طارق :

" معناه أن الملك لله! فهذه الأراضي التي تشتغلون فيها أقناناً ،وعبيداً للسلطان، ستكون لكم إذا ما أسلمتم! فانقلب القشتاليون على ملوكهم ، ودخلوا في دين الله أفواجاً ، وهكذا دالت دولة الظلم القشتالية، وازدهرت دولة العدالة العربية.

وبعد ثمانية قرون ، دالت دولة الإسلام، بسبب فحش ثراء الحكام، وبطشهم بشعوبهم، وتفتت دويلات ملوك الطوائف، فابتعد عنهم الشعب، وانهارت الأندلس.. المسألة مسألة ديمقراطية، سواء في بلاد الإسلام، أو في بلاد الواق واق..!

وأوضحت القنوات الفضائية أن الأمم المتحدة، قررت تسمية الجبل الذي نمر منه اليوم، جبل طارق، اعترافاً منها بقدرته وجبروت جيشه! وفور اعتراف الأمم المتحدة، أعلنت جميع الدول الأعضاء اعترافها بطارق بن زياد، ممثلاً شرعياً ووحيداً لجبل طارق، وكان مندوب الإنجليز الدائم لدى الأمم المتحدة، هو الخبير الداهية، الذي صاغ القرار، نظراً لحنكة الإنجليز،

وخبـراتهم فـي تقطيـع هـون كونـغ والباكـستان وبـنغلادش، وسنغافورة وأيتام سايكس وبيكو، وفلسطين وجزر الفوكلاند عن أهلها وذويها. وفهمت بعدها من الأخبار، أن جبل طارق فقط هو لطارق، وليست الأندلس . قلت في نفسي: (جبل طارق، جبل طارق) نحن لا نطمع في الأندلس، ولكن لماذا يحتل الإسبان الشاطئ المغربي، سبة ومليلية . أعتقد أن الإسبان يقولون لنا :

"يومٌ لك، ويومٌ عليك، فكما احتللتم شاطئنا الإسباني ثمانمئة عام، فسنحتل شاطئكم المغربي ثمانمئة عام مماثلة"

كان دمي يغلي في عروقي، فهذه أرضي العربية في سبتة ومليلية، مستعمرة مستعبدة! دخلنا "شاطئي" المغربي، وتجولنا في "مدينتي" سبتة لمدة حوالي ساعتين، ومن ثم اتجهت مجموعتنا السياحية لزيارة "مدينتي" مليلية، التي يدخلون إليها من ممر مغربي، وعند الحدود المغربية، عبر الجميع، ولم يبق منهم سواي أنا، ومن خلفي أسماك البحر وطارق بن زياد.. حدقوا في جواز سفري، ثم قالوا :

" أنت يا محمود ممنوع من الدخول"

استغربت الأمر ، فسألت موظف الجوازات :

" لماذا المنع؟" فقال دون أن يلتفت إلي:

"بصفتك عربي، فأنت بحاجة لتأشيرة دخول، إلى دولة المغرب، أنت بحاجة إلى إذن مسبق، مختوم على جواز سفرك، لدخول دولة المغرب." دهشت لجوابه فقلت محتجاً: "ولكن جميع السياح من مجموعتي دخلوا دون تأشيرة دخول! لماذا أنا العربي بالذات؟" فقال بظهره، وهو يراقب أوراق الآخرين:"هؤلاء أوروبيون وأجانب، مسموح لهم الدخول، دون تأشيرة دخول." فقلت صارخاً:" وأنا العربي؟" فأجابت مؤخرته :

"نعم ، لأنك عربي، فأنت بحاجة إلى تأشيرة، أو إذن مسبق، لدخول دولة المغرب، هذه تعليمات الدولة المغربية" لعنت الضباب والسفن والرحلات البحرية التي أغرق فيها وحدي قائلاً:

"الغرب والإسبان والقشتاليون والمشتاليون يدخلون الأرض العربية دون تأشيرة دخول، والعرب ممنوعون من دخول أرضهم العربية المغربية ؟"

"نحن لانفهم ماذا تقول. راجع السلطات الأمنية، أو عد، وانتظر مجموعتك في مدينة سبتة، فسيعودون بعد ساعات، وترجعون بسلام إلى إسبانيا ."

لم يتوقف بيتر لحظة واحدة للاهتمام بقضيتي، فقد كان يطوق خصر ماريا بذراعه، ويقبلها ، وهي تستقبل قبلاته بنعومة ورقة، بينما هما يتجهان إلى الحافلة، التي ستقل المجموعة السياحية إلى مليلية سعداء فرحين. بينما بقيت أنا العربي الوحيد، أقف كالجمل على مشارف الصحراء العربية، أجتر أحزاني!

يأجوج ومأجوج والأعور الدجال!

تقول الخرافة:

" هاجم قوم يأجوج ومأجوج شواطىء بلاد الشام، وانتشروا في البلاد، تحت إمرة قائدهم الأعور الدجال، وكان لانتشارهم في الأرض فعل السحر، حيث نزلت نيرانهم برداً وسلاماً على أجساد العباد، وفرحت أجساد الناس بهذا الغسول المميت، ذلك لأن الأعور الدجال قد سحر عقولهم، وبدأ باستقطابهم، فسحر تراب الجبال، محولاً إياها في نظرهم إلى أرز، وحول صخور الجبال في نظرهم إلى كتل من اللحم الشهي، والأشواك وما حولها إلى أشجار أرز وفواكه وبهارات.

وكانت أطباق أطعمة لحوم المناسف بحجم الجبال، والناس سكارى وما هم بسكارى، يتحركون يمنةً ويسرة، ويأتون ويذهبون بحركة عفوية، مندفعين منهمرين منبهرين بما يحدث، ولكنهم مخدرون، ذلك التخدير الذي يتسلل لذيذاً إلى كل خلايا الجسد .

وكان للسحر فعل الخيال، فلقد ثبّت الأعور الدجال مغناطيساً كبيراً على جبل المكبّر، في مرتفعات مدينة القدس، وكان المغناطيس يجذب الرّجال والنساء من أقاصي بلاد العرب، فتجدهم يركضون وقد خرجوا من عقولهم، تماماً كالإنسان الذي يضبعه الضبع، وينفخ في وجهه رائحة نتنة، فيفقد وعيه، ويجري لاحقاً بالضبع، المنطلق إلى مغارته، يركض خلف الضبع، وهو لا يدري لماذا يركض، ويدخل الضبع مغارته بانتظار فريسته التي سحرها، وجذبها من المكان البعيد، ولدى وصول العربي إلى باب المغارة، يصطدم وجهه بصخور المغارة، فتنزف من جبهته دماء غزيرة، فيصحو على نفسه، وينتبه إلى أنه في مكان غير مكانه، وينتبه إلى سحر ومغناطيس الضبع، فيعود راكضاً هارباً منه، كي لا يواجه حتفه.

وبهذا المغناطيس الساحر، فعل جماعة الأعور الدّجّال فعلتهم، فجلبوا بلقيس من اليمن عاشقة متيمة بالأعور الدجال، ثمّ أوقظوا زنوبيا ملكة تدمر، بعد أن ابتلعت الخاتم المسموم وماتت، مفضلة الموت الزؤام، على الاعتراف

بالاحتلال الروماني لبلادها، وبطريقة سحرية، وفي عجالة من الزمن، أيقظوها وركّبوا قطع عظامها المتآكلة على بعضها، تماماً كما يركب الأطفال قطع المكعبات البلاستيكية، فإذا بها كالمرأة الآلية، تتحرك وتتحدث، وبسرعة سخنوها بفرن(المايكروويف)، فدبت الحياة في خلايا جسدها، فقامت حية تسعى، ودون إرادتها، ركضت حافية القدمين، وكانت تلهث راكضة باتجاه الأعور الدجال. كانت مشدودة بالمغناطيس القوي، ولكنها تكرهه، وترفض أن تراه، أو أن تقابله، أو تصافحه، أو أن تقدم لـه جسدها الذي ومع امتداد التاريخ، لم يلمسه أحد، وكان الزّبد يتكاثف على شدقيها، والبخار الساخن كالغيوم يخرج من بين شفتيها! كانت تجري لاهثة باتجاه الأعور الدجال.

هكذا فكروا أن يبرمجوها على الكمبيوتر، وأن يحولوها إلى امرأة آلية، مصفحة بلباس لا يخترقه الرصاص، ولا تأكله النيران، ولا تؤثر فيه الصواريخ العابرة للقارات، حتى تصل بيمن الأعور الدجال ورعايته، فتركع تحت قدميه راضية، هانئة مخدرة، تستلذ بالتخدير الذي يسري في أوصالها. ولكنها ومع كل ذلك، كانت تصارع وتقاوم !

وأعلنت كليوباترا الفرعونية من جهتها، ومن طرف واحد، بأنها لم تعد تعشق انطونيو، وأنها وجهت قبلتها باتجاه القدس، وحددت موعداً بانطلاقها في موكب فرعوني مجيد، يحف به الخدم والحشم والعراة والحفاة والجياع والرعاع، وقررت أنها ستنتقل بموكبها المبجل من المدرج الروماني بالإسكندرية، لينتهي بها المطاف على جبل المكبر، في قدس الأقداس، أمام جبروت وسحر الأعور الدجال، وقررت أن تحشد جموعها ورجالها ونساءها، حفاة، عراة، لا بل نص القرار على أن يركضوا ركضاً، بسرعة عربات الخيول الجامحة، حول رهط موكبها العظيم ، ليقدموا الولاء والطاعة..

وكانت الإذاعات تبث، والمزامير تنفخ، مبررة توجهها بأن الوليمة تستحق العناء، وأن الجبال المتحولة إلى أطعمة شهية من الأرز واللحم والتوابل، ستشبع الجياع من أبناء شعبها، وأنها إذا لم تصل في الوقت المحدد، فسوف يضيع منها كل شيء. ولكن أبناء شعبها كانوا يرفضون اللعبة، ويقاومون تلك المهانة.

وفي غياب كليوباترا عن الإسكندرية، أرسل الأعور الدجال جماعته إلى مكتبة الإسكندرية، فحرقوها ليقتلوا قاعدة العلم والحضارة في بلاد الفرعون، واستطاعوا أن يفككوا كل أثر لصواريخ الظافر والقاهر، وفي بلاد الرافدين، استطاعوا أن يسحروا فرن بغداد الذري، ويحولوه إلى طابون، يشوي الخبز الملوث بالإشعاعات النووية، لتسميم الجياع، وأن يدمّروا كل أثر لصواريخ الحسين وأخيه العباس .

وفي غياب بلقيس عن اليمن، أرسل الأعور الدجال من يهدم سد مأرب، فتتحول أراضيها الخضراء، إلى صحراء كباقي الصحاري العربية، واختلفت قبائل قيس ويمن، بين مقاوم

وكانت بلقيس ما تزال تطير في سماء الطريق، مزهوة فرحة ناعسة، تحملها الرياح، ويتقاذفها الموج، الذي تحول إلى غيوم، ليحملها كببغاء ملونة، مزكرشة، محفوفة منتوفة مجملة، وقد سئمت طول الطريق، وبها شوق كبير لتحط رحالها عند أقدام الأعور الدجال.

مقطع من غول أوديب ملكا

قبل آلاف السنين، هاجم غول مدينة كادموس اليونانية، وكان الغول يقف في أعلى المدينة، ويطلب من أي شخص يصادفه أن يحل لغزاً، فإذا لم يعرف حل اللغز، أكله، وهكذا استطاع الغول أن يأكل الناس، ويهلك نسلهم، فزلزلت المدينة من أصولها، ولم تستطع أن ترفع عقيرتها، مما تردت فيه في هاوية الفناء.. إنها تفنى في براعم الشجر المثمرة، وتفنى فيما يموت من قطعان مراعيها، وتفنى فيما يموت من أبنائها، وتفنى في عقم نسائها، قد هبط على المدينة غول يحمل ناراً، فرماها بشر الوباء، فزلزل بيت كادموس، وغنيت ديار الموت السوداء بالنحيب والعويل.

وكان الناس منذهلين من هول ما يواجهون، وقد أعيتهم الحيلة أن يفكوا طلاسم هذا الغول العجيب، ولما جاء أوديب إلى كادموس، وسمع بقضية الغول، قرر أن يواجهه، وخلال المواجهة، طلب الغول من أوديب أن يحل اللغز، فاستطاع أوديب حله. فانفجر الغول ومات غيظاً، لدى معرفة هذا حل اللغز .

وهكذا ارتاح جمهور اليونان من شر الغول، وبدأت جراحهم تبرد، وعادوا يرممون خرابهم، ويبنون بيوتهم، ويعودون لحياتهم، وسعادتهم من جديد .

خاتمة الأعور الدجال.

وعند قمة جبل المكبّر حصل هرج ومرج، ولغط كثير، وكان الأعور الدّجال يتربع كغول أوديب، في أعلى جبل المكبر، وعيناه جاحظتان، وأسنانه ضخمة ناتئة، ويداه مكسوتان بشعر كثيف طويل، ولسانه أحمر، يخرج مسافة متر من فمه، ولعابه يسيل من قاع لسانه. كان بانتظارهم جميعاً، ولكن عقله لم يكن معهم، كان ذهنه شارداً، وقد تمترس هو وعصابته فوق الجبال المحيطة بالقدس، ولم يعطهم فرصة تشرفهم بتقبيل يديه، لأنه كان مشغولاً بالانتشار في جميع الأراضي التي كتبت

عنها، وحكت عنها، وصورتها الصحف والقنوات الفضائية، كان يخطط لأشياء كثيرة، وانتشر القادمون خلف الأسوار، وتجمع الناس وتفرقوا، وفتشوا كل الجبال والوديان التي حكوا عنها، بعد ما وصلت كل الوفود من سائر أنحاء الأراضي العربية، فلم يعثروا على المناسف، ولم يجدوا أرزاً، ولا لحماً شهياً، واكتشفوا أن التراب تراب، وأن الصخور صخور، ليس فيها أرز ولا لحم، ولا خضار ولا فواكه، وهكذا جفت حلوقهم من العطش، فلم يجدوا ماءً يشربونه، ولا قاتاً يقتاتونه، فلم يعجبهم الحال، فارتدوا على أعقابهم خائبين محبطين، شاعرين بالخزي والعار والمهانة والفشل، فعادوا من حيث أتوا، ولكن الرحلة كانت شاقة، فاهترأوا وتلاشوا على الطريق..

وبالمقابل تجمعت أجيالٌ جديدةٌ من أطفال العرب، ذوي دماءٌ حارة جديدة، وأخذوا يتكاثرون ويتجمعون، وتتراص صفوفهم، موجة إثر موجة، وابتدأت مقاومتهم من خط الدفاع العاشر نحو التاسع، فالثامن، فالسادس، فالثاني فالأول. حتى خرّ الأعور الدجال مغشياً عليه، وانمحت كل آثار الخرافة!

باخرة تغرق في المحيط !

الحفل البهيج الذي أقامه عمي أبو الشوارب، بمناسبة تخرج ابنته الدكتورة عائدة، من جامعة برلين، وفي نفس الوقت، خطوبتها لزميلها في الجامعة، الدكتور نمر البدراني، والذي ضم لفيفاً من الأقارب والأصدقاء، وزملاء العروسين والجيران والمعارف، لم يكن بالنسبة لي بيت القصيد، وليس هو ما شغلني طيلة وقت الحفل.

كان الناس يتحركون ويسلّمون، ويقبلون ويزغردون مباركين، وبعضهم يتناول الطعام والشراب، وكانت هناك حركة وهرج ومرج، ولهو ومزاح، وضحك وأحاديث، وتوزيع مشروبات وحلويات، ورقص وغناء وطرب، وملابس ملونة، وأناس ألوانهم سمراء وشقراء، صغار وكبار، رجال ونساء، منهم الطويل والقصير، والمتحرر والمحافظ في ملابسه وحركته، ولكن كل هذه المشاهد، لم تكن تظهر على شاشة كمبيوتر عقلي العجيب! وباللهجة الدارجة(لم تكن تعلّم على عدّاد عقلي).

كنت أجلس ساهماً مفكراً، وأنا أربط الحاضر بالماضي، وكان عمي أبو الشوارب يجلس متكوماً أمامي، وكأنه بقايا جبل، هدّته عوامل التعرية، فخلال نصف قرن من عمره المديد، كان يؤثر في الأحداث، وفي نفس الوقت يتأثر بها، مما جعله يتغير في أشياء كثيرة، ولا أعرف ما الذي غيّره! أهي الأحداث المتلاحقة خلال خمسين عاماً، فأكسبته مرونة في تقييم الأشياء؟ أم هو الزمن الذي يغير كل شيء؟ الشكل والمضمون، طاقته المتناقصة سنة بعد أخرى، وحجم جسمه المتزايد، لاحظت أيضاً أنه قد غير ملابسه، فلقد كان في مقتبل العمر يلبس القمباز والسروال والملابس الشامية العربية التقليدية، والآن يلبس البدلة على الطراز الغربي، وحتى شواربه الكثة الغليظة، التي كنا نحسب لها ألف حساب أيام طفولتنا، ضمرت وتضاءلت، لتبقى منها قطعة صغيرة من الشعيرات، لا تكاد تزيد عن اتساع فتحتي أنفه. وبالمقابل كنا نحن نتنكد، ولا نعرف الضحك وقت استقباله.

كان يلقي خطابات طويلة، وعندما يحضر جلسة يأخذ الحديث على عاتقه، وإذا تحدث أحد الجالسين، فإنه يصمت ويتنحنح، كي يقفل المتحدث فمه، ويصمت الجميع، ثمّ ينطلق عمي أبو الشوارب بحديثه، الذي لا يقاطعه ولا يخالفه فيه أحد.

وبعد أن يغادر الجميع يقول أبي :" هذا عمكم أبو الشوارب عامل حاله (استغفر الله العظيم)!"

كان عمي أبو الشوارب في بداية شبابه، وقبل خمسين سنة قد أطلق نيران مسدسه على ابنة عمه جليلة، فارداها قتيلة !

وقصة جليلة لا تبدأ عندما تقدم منها زوجها دون سلام، ولا مقدمات، وسألها:" لماذا وقفت عند البئر، وتحدثت مع محمود المهاوش ؟" فوجئت المستورة بسؤال زوجها ، فأجابت مربكة: " طلب مني شربة ماء، فأعطيته الدلو ليشرب ." فصرخ بنزق:" أعطيته الدلو، أم أنك تحبينه ؟" استغربت المرأة هذه التهمة، فقالت:" أنا لا أعرف الحب الذي تتحدث عنه، ولا أستطيع تجاهل طلب عابر سبيل، يطلب مني شربة ماء!" وأضاف المحقق:" شربة ماء وفهمناها، ولكنك كنت تحادثينه." فأجابت المتهمة:" سألني كيف حال أبيك وأمك ؟ فقلت له : "إنهم بخير."

" إذن تحادثتما! ألم يسألك أسئلة غرامية ؟" صعقت وهي تشاهد الشر في عينيه، فقالت:" حرام عليك يا رجل! " فأجابتها عيناه الحمراوان:

" أمثالك لا يعرفن الحرام! لقد شاهدتك أنا وصاحبي عدوان، وأشار علي عدوان بطلاقك لأنك خائنة. غداً سينتشر الخبر في كل القرية وعلى كل لسان. محمود المهاوش يغازل جليلة عند بئر الماء . محمود المهاوش يحب جليلة زوجة سرحان، وأنا لا أستطيع تحمل هذا الذل والعار. يا جليلة، أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق.!" فصرخت قائلة:

" حرام عليك يا سرحان! أنت تحرقني زوراً وبهتاناً بهذا الطلاق! أنت تفتح علي نيران قرية من جميع الجهات، وبلا سبب، ولا جرم اقترفته، هذا اسمه حرق امرأة حية، وليس طلاقاً. طلاق بفضيحة مدوية من هذا النوع، معناه حرق امرأة وهي حية، هذا حرام ! حرام! حرام!"

وهكذا خرجت جليلة من ذمة سرحان، وارتمت في مهب الريح، وعادت إلى بيت أبيها وأمها .. و(يا بنت قولي لاختك) انتشرت قصة جليلة في القرية، فقررت جليلة الابتعاد عن القرية والناس، فذهبت تقضي أيامها في موسم الحصاد اللعين، موسم قلع العدس العائد لأبيها، لعلها تنسى ما حصل، ولعلّ أهل قرية كفر البطيخ ينسونها.

راحت تقلع العدس في أراضي قريتنا ؛ كفرِ البطيخ، في موسم حصاد الحبوب، والدنيا حرّ، وتعيش الغُلبَ غُلبين .الطلاق وقلع العدس تحت أشعة الشمس الحارقة، وبين الشوك والعطش، والأفاعي القاتلة، والعقارب السامة، والغبار الخانقة، وحشرات البرغش التي تطن في ثقبي الأذنين، وتلسع داخلهما، والوحدة القاتلة..

وبينما عقلها يتأرجح، حاملاً مأساة طلاقها من زوجها سرحان، سمع محمود المهاوش بالقضية، فصعب عليه حال

(لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم!)"

قال هذا بينما كان الجميع صامتين، وتابع قوله : "والحل عندي يا عمي." فقال العجوز له:" يا عمي حلّوا الأمر كما تريدون، هذه ابنتكم، وأنتم أحرار بها."

لم يفكر أبو الشوارب كثيراً في الأمر، بل أخذ مسدسه، وحشاه في جيبه، وانطلق إلى الغابة، حيث كانت جليلة تقهر نفسها بقلع العدس، وتجميعه على شكل غمار، ودون أن يقرأ عليها السلام، قال لها :

" محمود المهاوش، طلب يدك من أبيك للزواج منه يا جليلة، فما رأيك؟" فقالت جليلة على الفور، ودون تردد، وهي تشعر أن روحها تكاد تطلع من حلقها بين غمار العدس :" ليكن ذلك، أنا موافقة." فقال الذئب الكاسر:" موافقة ها ؟! هكذا إذن! معنى ذلك أنك بالتأكيد تحبينه! لقد جلبت لنا العار والذل والهوان يا جليلة، في هذه القرية الحاقدة ! أنت خائنة يا جليلة، وخائنة الرجال، لا يحق لها أن تعيش مع الرجال!"

وبدل أن تجيب جليلة على قضية شائكة ومعقدة، فكرت أن تستمر بمطاحنة الشوك والحجارة، الممزوجة بعيدان العدس، ولا تجيب على هذه القضية التي يتسارع تعقيدها بشكل لم تعهد له تدبيراً!

لم يمهلها ابن عمها، بل أخرج مسدسه من جيب قمبازه، وصوبه على جثتها المتحركة، وأطلق عليها عدة رصاصات، حتى تأكد أنه أرداها قتيلة، ثم نفخ على فم مسدسه الذي تصاعد

منه دخان الموت، تماماً كأفراد عصابات أفلام الكاوبوي، ثم حشى مسدسه في جيب قمبازه، وعاد إلى بيت عمه، مرسلاً من يجمع رجال الأسرة، ليبلغهم فعلته بغسل شرف العائلة!

وهكذا دفنت جليلة بصمت رهيب من قبل أهل القرية. ولم يشتك أحد على فعلة ابن عمها، لأن الشكوى لحكومة الانتداب الإنجليزي آنذاك على قضايا الشرف، تعتبر إهانة لشرف العائلة، وللقرية كلها .

وهكذا ارتفعت أسهم أبو الشوارب في قطاع الشر، لا بل في قطاع الشرف والمبادئ والحقوق الاجتماعية، وازدادت شواربه غلاظة وتيبساً، وازدادت هيبته، وازداد اشمئزاز الناس وخوفهم منه، ومداراتهم له، واستطاع هو أن يمسك بزمام المبادرة، وأن يصبح هو الذي يشور ويمون، ويفكر ويقرر شؤون أسرته وأقاربه.

تلك الجثة التي أُسقطت في مستنقع ماء، فأحدثت دوائر لا متناهية، مرّت سريعاً في خيالي مثل شريط سينمائي وأنا جالس أمام عمي، خلال هذا العرس البهيج، الذي يبتعد خمسين سنة عن ذلك القتل المشؤوم .

كانت العروس عائدة وهي صغرى بناته قد نجحت في التوجيهي بتفوق، وحصلت على بعثة دراسية من دولة ألمانيا الشرقية، وسافرت لدراسة الطب هناك، وفي كل سنة كانت تعود بنتيجة متفوقة من برلين، وخلال قضائها إجازة الصيف في بيت أبيها، كان زميلها في كلية الطب؛ نمر البدراني يتردد كثيراً لزيارتها، وكان عمي أبو الشوارب يحب ذلك الشاب، ويعتبره ولداً من أولاده، وكان أهل البيت يعرفون ضمناً ودون تصريح، أن نمر البدراني يحب عائدة، وأنهما في النهاية يرغبان الزواج من بعضهما البعض، وكان عمي أبو الشوارب يستحب الحديث مع نمر، وعندما يسافران، يطلب منه أن يحافظ على عائدة، كما يحافظ على نفسه. وكان نمر يقول لعمي :"عائدة في عيني يا عمي" وبالفعل كانت في عيني نمر، وهناك في ألمانيا كانا يأخذان حريتهما في التعبير عن شعورهما، ويلتقيان بلا حسيب ولا رقيب ! واستمرت هذه العلاقة، إلى أن تخرجا وخطبا، وأقيم لهما هذا الحفل البهيج .

سألني عمي خلال حفل عائدة : "مالك شارد الذهن ياعمي؟ بماذا تفكر؟ ألك باخرة تغرق في المحيط؟ لا داعي للتفكير كثيراً ياعمي." فقلت له متسائلاً :" ترى ياعمي ماهو السبب المباشر الذي أضطرك لسحب مسدسك، والتأكد من أن جليلة خائنة، وتستحق القتل، فقتلتها؟ ما هي حجتك؟ كيف بررت فعلتك أمام أعمامي، وجدي والد جليلة؟" فتجهم عمي أبو الشوارب وقال :" عندما سألتها : هل توافقين على الزواج؟ كان المفروض أن تجيبني قائلة : أنتم المفوضون في أمري، وما ترونه مناسباً افعلوه . وكان خطؤها أنها قالت : ليكن ذلك . أنا موافقة. ومعنى قولها : أنا موافقة، يؤكد أنه كانت لها علاقة مسبقة مع محمود المهاوش، وهذه العلاقة المسبقة،

وبعد لحظات انتبه عمي لمغزى سؤالي، فتجهم وجهه كثيراً. كان واضحاً أنه يتألم كثيراً. فقلت لـه : "لمـاذا أنـت مـتجهم يـا عمي؟ ألك باخرة تغرق فـي المحـيط؟" لـم يجبنـي عمـي، بـل بقي ساهماً مفكراً وهو يتنهد! عندها شعرت أنه صار علـي أن أغادر الفرح، فقمت وانسللت من بين الجموع، دون وداع أحد!